حصة قراءة

محمد هشام عُبيّه

مقالات: حصة قراءة.. (كتابة في كتب..)
المؤلف: محمد هشام عُبيّه

تدقيق لغوي: محمد مصطفى
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: عبير طوسون
رقم الإيداع: 20163 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-85544-3-4
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

حصة قراءة..

(كتابة في كتب..)

محمد هشام عُبيّه

أين يمكن قراءة هذا الكتاب؟

حسنًا، هذا كتاب عن كتب، فلماذا عليك إذن أن تقرأ كتابًا يتكلم عن كتب أخرى؟

الإجابة بسيطة.

لأننا حصيلة ما نقرأ.

ولأن الحياة قصيرة فعلًا، وقد تمر عليك الشهور (ربما السنون) وأنت ترى هذا الكتاب الذي اقتنيه بحب وشغف، يرقد في مكانه بمكتبتك دون أن يتحرك منذ أن حل ضيفًا عليها قبل فترة، فلعل هذا الكتاب الصغير يحفزك على أن تتفض التراب عن كتاب أو أكثر، أو تعيد قراءة كتاب ثالث بمزاج ورؤية وانطباع مختلف، أو لعله يدفعك لأن تشتري كتابًا جديدًا وتلتهمه بأثر عدوى حمى القراءة في ليلة واحدة.

إن حدث شيء واحد مما سبق أو وقعت المعجزة وحدث كل ما سبق معًا، فقد حقق هذا الكتاب هدفه وأكثر.

هذا الكتاب قارئه الأساسي هو ذلك المواطن المكافح الذي يقضي ثلث يومه متنقلًا تحت الأرض وفوقها من مكان لآخر في القاهرة وغيرها من المدن المحاصرة بالزحام والفوضى والضجيج.

أحد أغراض هذا الكتاب إذن أن "يفصل" قارئه عن عالمه ولو لدقائق؛ لينتقل به إلى عوالم أخرى، ويورطه في رحلات بحث مشوقة عن معاني

متناقضة ومختلطة مثيرة للتفكير مثل: الحب، الموت، الإيمان، الإلحاد، الاستبداد، والمقاومة، الكذب، والحقيقة، كل هذا والقارئ لا يزال جالسًا مستكينًا على مقعده في المترو، أو في الأتوبيس أو في الميكروباص غير عابئ كثيرًا بموعد الوصول، هذا كتاب محرض على القراءة إذن، وليس هناك ساعات يمكن أن تفعل فيها ذلك إلا وأنت في الطريق.

كل الكتب الواردة هنا، هي كتب حديثة الصدور نسبيًا ما بين عامي 2016 و2019 وتشمل كتبًا عربية ومترجمة، والاختيار في الأغلب كان يتم وفقًا لقاعدة واحدة، أن يكون الكتاب ممتعًا ومحفزًا على التفكير، وهذا نظريًا هو غاية كل كتابة.

من المهم بالطبع الإشارة إلى أن هذا الكتاب مستلهم من تجربة رائدة للكاتب الكبير الأستاذ "علاء الديب" في كتابه البارز "عصير الكتب" (بجزئيه)، والذي كان جسرًا لأجيال عدة ليس فقط للاطلاع على كتب مهمة في مجالات شتى؛ وإنما لأن ذلك كان يتم عبر عين واعية وكتابة بديعة تضيف على النص وتزيده زخمًا وألقًا.

ليست هناك أي محاولة للادّعاء بأن هذا الكتاب المتواضع، هو امتداد لـ "عصير الكتب" وإنما يمكن فقط اعتباره تحية لروح الأستاذ علاء الديب وإبداعه، ومجرد حصة نستمتع فيها بأكثر الأفعال خيالًا وجمالًا وإبداعًا وجموحًا وحرية في هذا الكون – القراءة.

محمد هشام عبيه

العبور، القاهرة، يوليو 2019

حصة الروايات

الدائرة السوداء.. الحب في زمن "أمن الدولة"

نحن الآن في تلك الشهور الساخنة التي سبقت ثورة 52 يناير.

كل المؤشرات توحي بأن شيئًا كبيرًا سيحدث، لكن متى وكيف، هذه أسئلة لا يملك أحد إجابتها. من ذكاء كاتب هذه الرواية الممتعة المتدفقة، الصحفي والروائي المخضرم حمدي عبد الرحيم أنه وضع كلمة النهاية قبل اندلاع شرارة الثورة بعدة أيام. لم يغلق القوس على آمال تحققت أو أحلام تجلت، وإنما ترك للقارئ قوسًا مفتوحًا لعله يضع تصوره عن ما بعد النهاية.

حسنًا ماذا عن البداية إذن؟

شخصيات الرواية الرئيسية تكاد تحس أنك تعرفها حتمًا. في كل واحدة منها قبسًا من نجوم زمن أفول مبارك. الأحداث مغلفة بالسياسة قطعًا، لكنها بعيدة تمامًا عن روايات المنشورات المباشرة، بل يمكن وصفها بكل أريحية بأنها رواية رومانسية بشدة، وواقعية بقسوة في ذات الوقت.

الدكتور مالك الجندي رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة هو بطلنا، في الخمسين من عمره هو ويعيش حياة منقسمة وثقيلة، هو في الجامعة "في حاله" لديه قنوط من إمكانية حدوث أي تغيير في البلد عبر حركات احتجاجية على غرار 9 مارس (التي نشطت بين أساتذة الجامعات قبيل ثورة يناير)، أو حتى 6 أبريل، لكنه متعاطف مع كل هؤلاء، ثم أنه وصل إلى مرحلة متقدمة تكاد تكون تامة من الانفصال جسديًا وروحيًا مع زوجته الفظة دائمة الشك والهجوم عليه "محاسن"، ومن ثم فقد علاقته بأبنائه، وقد صار كل منهم في ملكوته الخاص. هو إذن رجل حزين ووحيد

بشدة حتى التقى ذات يوم ذلك النجم الوامض صاحب الروح المنعشة، الزعيمة، أو ليلى، بنت الأغنياء صحيح، وشقيقاها من رجال الأعمال اللذين يتبرعان لدعم الحزب الوطني، لكنها إحدى كوادر 6 أبريل التي تثير الصداع والقلق لدى كل أجهزة الأمن. ليلى في العشرينيات من عمرها، لكنها تمتلك في ذاكرتها قصة حب خالدة واستثنائية توجت بزواج أبيها من أمها، فتبدو حينما تتحدث عن الحب مغرقة في الرومانسية، وحينما تتحدث عن ضرورة مواجهة النظام الفاسد، أشد خشونة من رجال التنظيمات السرية.

يبدأ الحب المستحيل بين مالك وليلى في نسج خيوطه بين القلوب، يبدو مالك وجلًا ومرتجفًا وهو يسأل نفسه عما إذا كانت تلك المشاعر التي يعيشها مع ليلى حقيقية أم أنها خيالات رجل في أواخر العمر؟ وتسأل ليلى نفسها إذا كان ما يجذبها في مالك هو أبوته الوافرة، وشعره الأبيض، وحنانه المتدفق الذي يذكرها بالأب الغائب؟ كلاهما في نهاية الأمر سيكتشف أن الحب لا يحتاج إلى مثل هذه الأسئلة، إنه يأتي هكذا فجأة دون منطق، ولعل هذا هو سره الأبدي.

باستثناء عدة عقبات اجتماعية تتجسد في قدرة مالك على الانفصال الكامل عن زوجته محاسن التي تلوثت روحها بكراهية زوجها وبأفكار دينية متشددة، وما يتبعه ذلك من قدرة مالك على تقبل نظرة الأبناء له عندما يعلمون أنه طلق أمهم؛ من أجل الزواج بفتاة في عمر أبنائه تقريبًا، لا تبدو الأمور معقدة إلى هذه الدرجة، لولا ظهور العقيد أشرف العمري ضابط أمن الدولة الشرس في الأحداث.

أشرف، هو ضابط مختص بملف الحركات السياسية الثورية، سنراه وهو يطبق الخطة صفر التي تعلمها من أحد أساتذته في الجهاز، "علي خلف"، وهو واحد من القيادات العمالية التي كانت ناشطة في هذه الشهور الفائرة قبل ثورة يناير. الخطة ألف تقضي بتعرية الهدف كما ولدته أمه، ثم تعليق عبر يديه من أعلى ليصبح جسده حرًا، هذا يحدث في مكان احتجاز

رسمي طبعًا. بعدها يتم قشط جلده من خلف رقبته بفن وصنعة طبعًا بحيث لا تترك أثرًا يمكن أن يتم توثيقه في شهادات طبية. بعد هذا يأتي دور الصراصير التي يتم إطلاقها لتعبث في الجرح، ثم دور الثعابين– منزوعة الأنياب والسن– التي ستزحف على الجسد المرتعش بهدف إحداث الزلزال فيه، حتى يقوم بالمطلوب. الاعتراف بمن يساعده من العمال في تنظيمه لإضرابات داخل المصانع، لكن ضابط أمن الدولة الشرس هذا الذي "يحتقر كل الذين يتعاطون الفن وبخاصة الكتاب منهم يراهم شيئًا يثير اشمئزازه كأنهم "ضفادع ميتة"، في منزله يتحول أشرف إلى كائن آخر لا هم له سوى امتصاص زوجته اللعوب بثينة، هي تعرف جيدًا كيف تثيره وتستفز شهوته، وهو يحب فيها طريقتها معه، يراها كل يوم امرأة غير امرأة الأمس، فيشعر أنه تزوج من ألف امرأة وليس واحدة فحسب. هو لهذا لم يخنها قط. كيف يفعل ذلك وهو يخونها معها كل يوم؟ لكن هذا النعيم لا يدوم أبدًا. حينما تحدث تلك الصدفة القاتلة، يلتقي خلف الذي طبق معه الخطة صفر، وقد خرج من السجن، فوجده شاحبًا هزيلًا يبيع الكراسات في الشوارع. يدرك أشرف أنه قضى على هذا الرجل تمامًا، حتى إن الأخير عندما رأه في الشارع أصابه الفزع، ثم لم يتمالك سوى أن يقول له: "حسبي الله ونعم الوكيل"، فأصابت أشرف اللعنة الأبدية، ماتت الشهوة والرغبة في جسده فجأة. فحولته التي كانت يتباهى بها انهارت، ضعفت طاقته، وصار لقاؤه مع بثينة عبئًا واختبارًا يرسب فيه كل مرة، ثم انقلب مجنونًا يشك فيها وفي كونها تخونه، ثم خارت صحته، حتى استدعى الأمر أن يأخذ إجازة من عمله وهو ضابط أمن الدولة الكفء الذي لم يتخلَ قط عن أي مهمة. تاه العقيد أشرف داخل ذاته، وأخذ يبحث عن علاج للعنة التي أصابته، حتى وجده في فيديو التقطته أجهزة الأمن لمظاهرة لشباب 6 أبريل، كانت تقودهم فيها تلك الزعيمة الشابة البضة – ليلى.

يبدأ أشرف في نسج خيوطه حول ليلى، لم يعد يرى نفسه يمارس الحب سوى معها، سعى للقائه، تحركه في ذلك شهوة مجنونة. اتبع معها

أولًا الخطاب اللين، ثم الإغوائي، ثم التصعيد، وأخيرًا بالتهديد كونه ضابط وكونها ثورجية، لكن ليلى قاومت كل ذلك بشجاعة، فلم يجد أشرف بأن يرمى ورقته الأخيرة "سأزور أهلك وسأطلبك منهم وستكونين لي". كل هذا وبطلنا الأستاذ الجامعي الخمسيني "مالك" يحاول أن يخرج من شرنقته الخاصة، ثم ها هو يلتقي ليلى المنهارة الباكية كما لم يرها من قبل، يحتضنها ثم يقرران معًا: "ليس أمامنا الآن سوى الهروب، سنتزوج ونرتاح قليلا، ثم نعود معًا لمواجهة أشرف". تنتهي الرواية الشائقة بهذه الجملة الدائرية المفتوحة على كل الاحتمالات، وكأنها تبعث رسالة لكل المحبين بأن قاوموا، وتقول لكل أشرف، المعركة مفتوحة إلى يوم الدين.

الرواية: الدائرة السوداء.
المؤلف: حمدي عبد الرحيم.
الناشر: دار الكرمة– 2016.

زاوية أخرى: هذه هي الرواية الثانية للمؤلف بعد "سأكون كما أريد" وصدر كتابه الأول بعنوان "فيصل–تحرير.. أيام الديسك والميكروباص" عام 2009 وهو خلطة نادرة بين السيرة الصحفية والكتابة الساخرة، ويستحق القراءة باستمتاع وشغف.

يكفي أننا معًا.. لأن الحب المستحيل "ممكن"

السطر الأول من هذه الرواية نموذجي للغاية، ويصلح للتدريس في كيفية كتابة جملة افتتاحية روائية جاذبة "تخصص جمال منصور في قضايا الأحوال الشخصية، ولم يترافع في حياته إلا عن النساء". القارئ الآن مهيأ لأن يقرأ رواية زاخرة بعالم المحامين الثري، المتشابك مع خبايا المطلقات وما ورائهن من قصص، لكن الكاتب "عزت القمحاوي" في روايته الجديدة "يكفي أننا معًا" – صادرة عن الدار المصرية اللبنانية – بعد هذه التهيئة يأخذ قارئه في رواية رومانسية شديدة العذوبة، تجنح في تفاصيلها إلى تخوم قصص الحب المستحيل التي يتوحد القارئ مع أبطالها، معذبًا في ذات الوقت بالمصير المتوقع، منتظرًا المعجزة أن تحدث.

جمال إذن هو بطلنا، محامي في الثامنة والخمسين من عمره، لم يتزوج قط، لكنه ذو خبرة في الجنس الناعم عبر "نساء البرزخ"، وهو المصطلح الذي صكه جمال لنفسه واصفًا "زبائنه" من السيدات اللائي على شفا حفرة من الطلاق أو الخلع، حتى إذا اتنزع لهن جمال هدفهن المنشود من فم القاضي، حان وقت دفع الأتعاب، كل على طريقتها. جمال لا يبتز أي منهن، ولا يساومهن على حريتهن مقابل ليلة في الفراش، لكن إذا جاءه العرض لباه مسرورًا، حتى وهو يعلم بأنه عرض لمرة واحدة فقط، وحتى وهو يعلم أن من يحتضنها الآن على سرير ربما كانت تحتضنه عليه زوجها السابق، تفعل معه ذلك على سبيل الانتقام من طليقها وليس حبًا في جمال أو "صلعته". أصلع هو إذن أيضًا، ولديه كرش خفيف، لكنه مثقف وقارئ جيد للأدب والفنون، لكنه أيضًا يعرف أنه وحيد، وأن العمر فاته، وأنه سيتقاعد بعد عامين لينهي أسطورة جمال منصور أشهر محامي الأحوال الشخصية الذي

يترقب زملاؤه مرافعته ليتعلموا منه. كل هذا يعرفه ويعرف أن ما فاته في الحياة كثير، ولن يستطيع تعويضه، حتى زاره في مكتبه ذات ليلة شتوية باردة، قمر صغير عرفه نفسه له باسم "خديجة".

جميلة خديجة وذات جسم صغير ونحيل، وفي السابعة والعشرين من عمرها، أي أنها تصغر جمال بأكثر من ثلاثين عامًا، لكنها ومن أول زيارة لها، اقتحمت حصونه، ورفعت رايتها فوق قلبه. أتت له بدعوى أنها طالبة دكتوراه، وتكتب رسالتها البحثية عن "عمارة المحاكم وعلاقاتها بالتحولات السياسية في مصر خلال مائة عام". لم تكذب خديجة في عنوان رسالتها، فقط كذبت في أن العلم واستطلاع رأي جمال باعتباره من مخضرمي المحامين في موضوع رسالتها، لقد كانت قادمة من أجل جمال نفسه وليس من أجل علمه.

رغم سنه المتقدم، انجذبت خديجة لجمال عندما رأسته ذات مرة في غرفة المحامين بإحدى محاكم القاهرة، ربما بقايا وسامة، بقايا شباب، والكثير من قوة الشخصية والحضور، رق قلبها وقرر أنها يجب أن تقترب منه أكثر، ففعلت، لكن هل كان دافعها الوحيد في ذلك هو أنها فقدت أباها مبكرًا؟ وهل كان جمال مندفعًا في علاقته بخديجة لأنه أحبها فعلًا أم لأنه أحب حبها له رغم فارق السن؟ أم لأنه اكتشف فجأة أنه يستعد ليغادر الحياة وهو لم يحيا فيها أصلًا فعليه أن يفعل ذلك مهما كان الثمن؟

لا تريح الرواية قارئها في أن تقدم له تفسيرات متكاملة أو مشاعر واضحة، وكأن المؤلف أراد بذلك أن يشرك القارئ في تحديد أفعال الأبطال ومصائرهم، إذ إنه تدريجيًا، وعبر مراسلات عدة من خلال "واتس آب" يحدث ذلك التقارب بين جمال وخديجة، يتقابلان أكثر من مرة لكن القاهرة تضيق بهما، يحتاجان إلى براح أكبر بعيد عن العيون الفضولية والمتعجبة لتلك الرومانسية البادئة في همسات ذلك العجوز وتلك الفتاة الصغيرة، هكذا يكون الفرار إلى إيطاليا، رحلة العمر إلى روما وكابري. ما الذي

يحتاجه الأحباء أكثر من طبيعة خلابة ومساحات حرة للانطلاق وممارسة الهوى، وعيون متضامنة تدعم وتبارك وليست مترصدة مستهجنة. هكذا تدور نصف أحداث الرواية تقريبا في إيطاليا، ويعمد المؤلف إلى الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة التي تحيط بعالم جمال وخديجة، فيصف الأطعمة التي يأكلونها معًا، والمتاحف التي يزورونها معًا ليختطفوا في جوانبها المظلمة قبلات سريعة، تثير الحواس وتهيؤها للقاءات أكثر متعة في الفندق لاحقًا.

تمضي الرحلة كأفضل ما يكون حتى قبل نهايتها بيومين، يصاب جمال بتعب؛ بسبب إفراطه في الحركة والسير برفقة حبيبته الشابة، يحتاج إلى الراحة في الفندق، تخرج خديجة في جولة بمفردها، لتكتشف جوانب أخرى من كابري/ الحياة/ العالم، الذي كان غائبًا معها لأنه كان برفقة جمال، ترتبك في حضرة مغازلة من شاب إيطالي وسيم ممتلئ بالحياة، وتفكر في ما إذا كانت نظرات جمال عندما كان برفقتها بالأمس تجاه واحدة من السائحات ممتلئات الجسد، كانت نظرة بريئة فعلًا، أم أنه يهوى أجساد النساء الممتلئات وهي بعيدة عنهن بعد السماء عن الأرض؟ تفكر في السبب الذي جعله يعيش حتى اليوم وحيدًا منعزلًا، عن سر ولعها برجل يصول ويجول بشجاعة في المحاكم ويفرض هيبته على الآخرين وينتزع حقوق موكلاته بينما لا يستطيع أن ينتزع حقه في حياة مختلفة؟

في غرفته وحيدًا يتأمل جمال أيامه الماضية، وأيامه برفقة خديجة، يتذكر أنه "أحيانا ينسى كل شيء، ويصبح لها وحدها منسجمًا متدفقًا يهتم بها، وفجأة ينكمش على نفسه تحت نظرة مستطلعة فيصيبها بالإحباط"، يفكر في سر ذلك الطيف الحزين الذي يظهر دومًا في نفسه حتى وهو معها، هل هو يترقب نهاية الرحلة؟ هل يخشى المغامرة التي يجب عليه أن يخوضها بعد عودتهما إلى مصر؟ هل يستطيع أن يبتعد عنها؟ هل يستطيع أن يقترب منه أكثر؟ يكتشف اكتشافًا صعبًا "يستطيع الإنسان أن يفهم أشياء الكثير من الأشياء إلا ذاته".

تأتي رواية "يكفي أننا معًا" أغنية بتفاصيل العاشقين (طعام– كتب– رحلة– مراسلات) وثرية بحشد من المشاعر، وهي في ذلك تجنح إلى البساطة في السرد وتتبع تصاعدًا تدريجيًا في الأحداث، ولعل هذا أحد أسرار قدرتها على اجتذاب القارئ، ولا تطرح الرواية أسئلة حول إمكانية نجاح الحب المستحيل بين محام يقترب من الستين، وفتاة في ريعان شبابها، بقدر ما تطرح أسئلة حول قدرة الإنسان على الفوز بلحظات من السعادة والنشوة في أكثر الأوقات اعتقادًا بأن زمن السعادة والانطلاق والنشوة قد ولى بغير رجعة، وتجعل الرواية قارئها يفكر في كيف يمكن للحياة أن تكسر القواعد التي وضعتها هي بنفسها، خاصة فيما يتعلق بقوانين الحب والهوى، ولا بد من الإشارة إلى أن اختيار إيطاليا وتحديدًا جزيرة كابري الساحرة مسرحًا لنصف الأحداث تقريبًا، أدخل على الرواية متعة بصرية تخيلية، وزخمًا معلوماتيًا لافتًا، أضاف إلى حسها الرومانسي الأخاذ أبعادًا.

يتوقع القارئ نهاية صادمة للرواية بعدما بدأ الحبيبان في مواجهة أسئلة أنفسهما شديدة الصعوبة، لكن عزت القمحاوي يختار أن تبقى النهاية مفتوحة تحتمل الأمل واليأس، نهاية تقف عند حدود الرجاء، نهاية تدعو الأحبة إلى الاستمتاع بتفاصيلهما الخاصة، وعصر لحظاتهما معًا عصرًا، والتهام كل ما يقابلهم من جمال ومتعة وحياة وهما معًا، وكأن ذلك يحمل رسالة ضمنية مفادها، يكفي أننا معًا "الآن" ولا يهم ما سيحدث اللحظة القادمة.

الرواية: يكفي أننا معًا.
المؤلف: عزت القمحاوي.
الناشر: الدار المصرية اللبنانية – 2017.

زاوية أخرى: هذه هي الرواية السادسة لعزت القمحاوي ضمن ثلاثة عشر كتابًا أصدرهم في نحو عشرين عامًا، وقد فاز من قبل بجائزة نجيب محفوظ في الرواية التي تمنحها الجامعة الأمريكية عن رواية "بيت الديب" عام 2010، وهي الرواية المظلومة في مصر كونها صدرت عن دار الآداب

اللبنانية، ولم توزع بشكل جيد في بلد المنشأ إن صح التعبير.

حالات ريم.. تلك الأرواح التائهة

هذه رواية قصيرة في قطع صغير (611 صفحة)، ويمكن للقارئ أن يلتهمها في نحو ساعتين، لكن الأسئلة التي تثيرها، والأرواح المعذبة التائهة العالقة بين صفحاتها لا يمكن أن تغادر قارئها بسهولة أبدًا.

كعادته، لا يذهب الروائي المخضرم "عادل عصمت" (الفائز بميدالية نجيب محفوظ في الأدب عن الجامعة الأمريكية)، إلى القاهرة، وإنما يستقر المقام بأبطال "حالات ريم" في مدينته الأثيرة "طنطا"، ليكون شارع النحاس والبحر وعلي مبارك والطريق الزراعي إلى الإسكندرية وغيرها هم طرق الفرار من جحيم الأسئلة التي تطارد "مهاب" ذلك الصيدلي الأربعيني الذي اكتشف فجأة بعد أن طلق زوجته ريم طلقة ثالثة في غمرة انفعال عصبي، إنه لا يعرف ريم كما كان يتصور، بل والأسوأ من ذلك أنه لا يعرف نفسه.

من هذه الواقعة "الطلقة الثالثة البائنة"، يبدأ مهاب في إعادة اكتشاف العالم من حوله، ليدرك أن العالم ليس مستقرًا وهادئًا كما يوهم نفسه بذلك، فريم وأسرتها يتشددون في رفض عودة زوجته إليه إلا بعد أن تمر بمحلل، وهو غير مقتنع بالأساس أنه طلق ريم؛ لأنه أخبرها بأنها إذا خرجت من المنزل في هذا اليوم المشئوم ستكون طالقًا، هي خرجت بالفعل، لكنه يعتقد بأن هذا طلاق لا يقع.

تدريجيًا يتكشف العالم الذي لم يكن يعلمه مهاب، ربما لأنه كان مستغرقًا بشكل كلي في ريم. كانت وحبها هما العالم بالنسبة له، فلما هجرته، تهاوت الأسوار الحامية من حوله، وبدأت الأشياء تتموضع في

أماكنها الطبيعية.

يظهر له من خلف سنوات بعيدة، صديق الطفولة القديم "شريف الشايب" مدرس الثانوي، الذي يمارس الجنس مع تلميذاته الصغار، وفي غمرة كرم تليق بعلاقة صداقة قديمة، يعرض شريف على مهاب أن يورد له فتاة من بنات ثانوي يمكن أن تنسيه هجران زوجته له في غمضة عين. يرفض مهاب العرض في البداية، لكن مع استمرار زيارة ريم له في أحلامه، وفشله في معرفة أسباب تحولاتها المزاجية وتحولها من فتاته المطيعة إلى امرأة متمردة و "نكدية"، يبدي استجابة لعرض "الشايب"، لكنه العرض لا ينتهي كما كان يرجو ويتمنى؛ لسبب بسيط أن ريم لم تغادره بعد. يدرك شريف أنه وقع بين أشد الأشياء صعوبة: المسخرة، والألم "يدور بالسيارة في الشوارع. ينسحب ضوء الشمس من فوق شجرة البونسيانا في شارع البحر. المساء يخيم على الميدان الواسع المستدير في قلب المدينة بساعته الخربة. يفكر في أمرين لا يمكن تحملهما: المسخرة، والألم. المسخرة تم ترتيبها بشكل ما"

في سبيل رحلته لاستعادة ريم من عالمها الذي انسحبت إليه بعيدًا عنه، حيث هجرت الملابس الضيقة والبنطلونات لترتدي خمارًا وعباءات سوداء، وتتستر ببيت أمها، وتحتمي بسطوة زوج أختها "الشيخ عصام" الذي يتكسب من المتاجرة في كتب الدين، يكتشف مهاب الحقائق تلو الأخرى عن أقرب الناس إليه، فها هو أخيرًا يعرف سر ذلك العداء المستعر بين زوجة عمه الراحل، وبينه وبين أشقائه، وكيف قاتلت بضراوة من أجل أن تشاركهم في نصيبهم في الميراث. لقد عرف أن زوجة عمه أرادت الزواج من والده بعد وفاة شقيقه، لكن والده رفض، فكانت المعركة التي استمرت حتى بعد وفاة والده، يفكر "كيف يمكن لأمور غير أساسية في الصراع أن تشكل الصراع"، ولعل هذه العبارة هي مفتاح اللغز الذي شغل رأس مهاب طوال أحداث الرواية، بل لعل هذه العبارة تحديدًا وحدها التي

كان يمكن أن تفكك "حالات ريم" ويفهم منه مهاب كيف يمكن لكل هذه الحياة والحيوية التي في روح وجسد "ريم" أن تنطفئ فجأة، ربما ليس بسببه فحسب؛ وإنما لأن العالم من حولهما كان يدفعهما لهذا المصير دفعًا.

كانت ريم تحب إعلانات التليفزيون أكثر من الأغاني والمسلسلات، وتنتبه إلى سرعة الإيقاع والمرح والعوالم الخيالية التي تثيرها الإعلانات، معجبة بالعقول التي ابتكرت هذه الثروة من الحكايات الملونة، لا تطيق نشرات الأخبار، تتهكم على الوجوه المقعرة ثقيلة الدم والروح، وتتساءل ما الذي يجعلهم مملين وسمجين بهذا الشكل، لكنها قررت فجأة أن تتخلى عن كل هذا وتتوقع داخل عالم مليء بالأسئلة الكابوسية عن جدوى الحياة وما الذي سيحدث لنا حين نموت؟ وهكذا بدأت تحولات "ريم" تكون في حالة نكد في الصباح، يعود في الليل، يجد البيت نظيفًا وكل شيء جاهز. في أيام أخرى تبدأ اليوم مشرقة ويعود فيجدها ممددة على كنبة الصالة تشاهد التليفزيون والبيت في حالة فوضى. بمرور الأيام ازداد ميلها للكآبة، راحت تستغل أي فرصة للعراك، مستعدة دومًا أن تلم هدومها وترحل إلى بيت أمها".

اللافت أن الرواية ظلت طوال صفحاتها تروي الأحداث من وجهة نظر مهاب فحسب، لا صوت سوى صوته، نرى العالم كله من عينيه، نرى تحولات ريم عبر تفسيراته وتأويلاته، ورغم أن هذا يفتح الباب لأن تظهر ريم في صورة منفرة، وهو الأمر ذاته الذي يمنح مهاب فرصة أن يظهر – على الأقل أمام القارئ– بأنه الضحية لتحولات ريم ومزاجها الكئيب، إلا أن شعورًا ما يتسلل للقارئ بأن مهاب متورطًا فيما جرى لريم من تدحرج على سلم الاستمتاع بالحياة حتى وصلت إلى أسفله. وذلك رغم أن مهاب بدا رجلًا تقليديًا، يهوى ممارسة الحب مع زوجته، تلفت أنظاره السيدات الجميلات الأخريات، لكنه يقف عند حدود الإعجاب دون الوصول إلى ما هو أبعد، يعمل في وظيفة روتينية بإخلاص أملًا في ستر واستمرار في

الحياة، تجمعه علاقة عادية دون نتوءات مع أسرة ريم، فهل لأن مهاب كان عاديًا جدًا، مخلصًا جدًا، طبيعيًا للغاية، هو السبب في كل ما جرى لريم وما جرى له بعدها؟

هذه أسئلة لا تجيب عنها الرواية مباشرة، لكن ما اكتشفه مهاب كان مريعًا، فقد اكتشف أولًا: أنه بعد عشر سنوات من الزواج فإنه غريب عن زوجته، وأن كل شيء يتغير ويتحرك من حوله بينما هو مستقر في مكانه، ثم جاءه وقت الاكتشاف الأكثر قسوة، "ريم لم تعد تريد الحياة معك". يرغب في من ترغب في هجره. الهجر لا يمكن تحمله. يهز أركان تصوره عن نفسه: ثقته في ذكورته وفطنته. الهجر يقوض صورته التي اعتاد عليها وعاشها كأنها "هو". ما الذي يتبقى من مهاب بعد أن تهجره ريم".

تفكك "حالات ريم" إذن العالم الهش الذي يظن كثيرون أنهم يعيشون داخله في أمان، وتنتزعهم من حالات استقرار وسلام وهمي، حينما تضعهم أمام الحقائق التي يتغافلون عن إدراكها لسنوات بدعوى "الاستمرار في الحياة". الجميل أن عادل عصمت يفعل ذلك دون صوت زاعق، وإنما بأسلوب هادئ وعبارات قصيرة متلاحقة، وببناء درامي محكم ومتصاعد يصل ذروته حينما يستبد الجنون بمهاب فيقرر أن يعاقب "ريم" على هجرانها وما سببه من انهيار عالمه الآمن. عقاب مجنون ومنفلت يجعله وحده هو من يحتفظ بصورة ريم في داخله، ولا يطولها أبدًا أي شخص آخر يمكن أن يتزوجها من بعده مثلما هددته في المرة الوحيدة التي حدثته فيها بالتليفون عقب هجراتها، لكن العقاب سيطول الجميع في نهاية الأمر، لتبقى عبارة صديقه فهمي وهو على أعتاب الهجرة إلى أمريكا تدوي في أذنه وكأنها كانت الطريق السحري السري للخلاص، "الحياة فترة بسيطة علينا اجتيازها، لا يجب أن يثقل المرء قدميه بأكياس رمل، عليه أن يعيش كأنه يعبر شارعًا". عبارة تبدو سهلة في تنفيذها لكنها صعبة كل الصعوبة إذا ما أقدمت عليها أرواح تائهة وهائمة.

الرواية: حالات ريم.
المؤلف: عادل عصمت.
الناشر: كتب خان– 2017.

زاوية أخرى: صدرت أولى أعمال عادل عصمت "هاجس الموت" عام 1995، لكنه احتاج لنحو عشرين عامًا بعد ذلك حتى ينتبه إليه الوسط الثقافي والقرائي بقدر يليق بموهبته المتدفقة، وذلك عقب فوز روايته "حكايات يوسف تادرس" بجائزة نجيب محفوظ في الرواية التي تمنحها الجامعة الأمريكية عام 2016. عادل لا يزال متمسكًا بالبقاء في مسقط رأسه بطنطا، ولا يزال يعمل بجانب احترافه كتابة الرواية، مفتشًا على المكتبات المدرسية في محافظة الغربية.

المختلط.. دراما الخواجات والجدعان على شط نيل المنصورة

لدينا هنا دراما عائلية من الطراز الثقيل، عبر امتداد زمني يمتد لنحو قرن، يبدأ بالتزامن مع شرارة الحرب العالمية الأولى عام 1914، ويتلامس مع عالم ثورة يناير 2011.

نحن الآن في المنصورة، حيث يسكن أحمد جلالة بيتًا يليق بتاجر أقمشة كبير في حي الحسينية أحد أقدم أحياء المدينة الذي عرف عنه في بدايات القرن العشرين بأنه حي السكن والتجارة؛ لكونه على مقربة من محطة القطار، فضم الطبقة الشعبية والتجار. جلالة شريكًا مع عبد الرازق في محل أقمشة معروف في "سوق الخواجات"، وذات يوم جاءهم الخواجة الإيطالي "إيفان" –حيث كانت المنصورة تعج بجنسيات عدة– واشترى منهم حرير وأقمشة ليرسلها إلى السلطان حسين كامل تقربًا، لكن أجواء الحرب الدائرة حالت دون وصل الهدية لصاحبها، فماطل الخواجة إيفان في دفع قيمتها لأحمد جلالة وشريكه، ثم اتفقوا على أن يتقاسم الثلاثة قطعة أرض يمتلكها إيفان، تطل على النيل في منطقة جديدة لا يسكنها سوى الأجانب تعرف باسم "المختلط" لقربها من المحكمة المختلطة.

في عام 1920 ينتهي جلالة وعبد الرازق من بناء المنزل، وبحسب الاتفاق لهما نصف المنزل وللخواجة إيفان نصفه الاخر، لكن الخواجة الإيطالي يطمع في المنزل كله، مستغلًا ثغرة قانونية تمنع المصريين من تملك أراض يملكها أجانب بالأساس. يتقبل جلالة الأمر في استسلام عجيب، لكن الدماء تغلي في عروق عبد الرازق، ويقرر أن يستحوذ على

نصيبه من بيت المختلط بالقوة. يكسر باب إحدى الشقق التي بناها من أمواله، ويستقر فيها، يأتيه إيفان بالشرطة، يكون مصير عبد الرازق الحبس لخمس سنوات كاملة.

في عام 1962، وبالتزامن مع خروج عبد الرازق من السجن، يصاب إيفان بمرض شديد، يحن لوطنه إيطاليا، لكنه لا يقوى على السفر وحيدًا، فلا يجد سوى أحمد جلالة يثق فيه، ليطلب منه أن يصطحبه في رحلته إلى روما، حتى إذا مات، فعل ذلك بين أسرته؛ بدافع ممزوج بين الجدعنة والمغامرة والتطلع إلى استرجاع البيت، يوافق جلالة على العرض، ويبدأ مع إيفان رحلة عجيبة من ميناء الإسكندرية وصولًا إلى روما.

في إيطاليا، يكتشف أحمد جلالة عالمًا سحريًا عبر عائلة الخواجة إيفان المدهشة، يعلم من زوجته أن إيفان تركهم ذات يوم ليصطاد سمك ثم سافر بعدها إلى مصر ولم يعد إلى إيطاليا إلا برفقته، ينبهر أحمد جلالة ببوينا الإيطالية الجميلة ابنة إيفان، ثم يجد نفسه متورطًا في حبها، وتطول رحلته في إيطاليا لأربع سنوات كاملة، تنتهي بأن يجد زوجة إيفان تطلب منه الرحيل؛ لأن المحظور قد وقع، وباتت إيفان تحبه هي الأخرى.

بعد عودة أحمد جلالة للمنصورة محملًا بذكريات هائلة من إيطاليا، يتزوج ابنة مصطفى للمرة الثانية، زوجته الأولى "سجايا" كانت شرسة ولم تنجب حتى طلقها زوجها بأمر من والده، بينما الثانية "ود" تعرف إليها مصطفى في أحد فنادق الإسكندرية حيث كانت تعمل برفقة والدتها ووالدها في المكان. منذ البداية تتطلع ود لأن تترك منزل الحسينية، وتنتقل إلى منزل المختلط الذي آل بالفعل إلى أحمد جلالة بعد رحلة إيطاليا. تجد مقاومة من زوجها، حتى تنفذ غرضها هذا عندما تجد زوجها يسترد زوجته الأولى "سجايا" وتعود لتسكن إلى جوارها في المنزل الكبير. تنتقل "ود" إلى بيت المختلط وتنجب هناك نجلها الأول "محمد"، وهناك ينفتح أمامها عالم عجيب آخر.

في العمارات المجاورة تعرفت ود إلى سيدات إيطاليات وفرنسيات، وتعلمت منهن فنون الطبخ والموضة والاتيكيت الأوروبي، ثم جرت وقائع ذلك الحريق الكبير الذي نشب في قصر الخواجة "سيرافينو" تاجر المجوهرات الإيطالي، عقب مكائد نسائية مروعة في دهاليز القصر بين "لوريتا" مديرة القصر وقريبتها اللعوب "شانتيل" من أجل الفوز بقلب "سيرافينو". بعد انتهاء الحريق لا تعثر الشرطة إلا على جثتين لشانتيل وصاحب القصر مقتولين ولم يمسهما الحريق، وقد اختفت لوريتا قبل أن تظهر جثتها بعد اسابيع على ضفاف النهر، وفي ركن قصي من القصر المحترق، يجدون طفلًا صغيرًا أشهب اللون يبكي، لا يعرف أحد من هو، خاصة وأن للقصر لعنة تخص الأطفال، إذ مات فيه أبناء "سيرافينو" وهم صغار. الطفل هذا لا يتكلم العربية، ولا أي لغة أجنبية أخرى معروفة، يتولاه لاحقًا بالرعاية "سلطان" بائع البسبوسة الذي كان يتخذ من الرصيف المقابل للقصر مكانًا للبيع. يكبر الطفل في كنف أسرة سلطان، ويطلقون عليه اسم "فهمي الأشعل" الذي سنعرف لاحقًا أن اسمه الحقيقي هو "أخيم أرون" وقد هربت أمه الألمانية اليهودية من جحيم النازية وانتقلت إلى فرنسا ثم بريطانيا، وقبيل القبض عليها، ثم انتحارها في السجن، تمنح ابنها لأحد أقربائها ليهرب بالطفل إلى مصر في قعر سفينة حربية ليصل فهمي أو "أخيم" إلى قصر سيرافينو بالمنصورة بطريقة لن يعرفها أحد أبدًا.

سيكبر فهمي وهو دائم البحث عن هويته، يصبح مسلمًا بحكم الأوراق الرسمية التي سيتم "ضربها" لاحقًا، لكنه في داخله يعرف أن لديه دين آخر، يتحدث العربية، لكن الألمانية مغروسة في ذاكرته، يقع في حب الراهبة "لوسيان" المعلمة بمدرسة الراهبات بالمنصورة، ويتعلم منها كيفية صناعة الخبز الفرنسي "الفينو" ويصبح رائدًا له في المنطقة، لكن قلبه ينكسر عندما تفوح رائحة حبه مع "لوسيل"، فتجد الأخيرة نفسها مضطرة لأن تنفي نفسها في إحدى مدارس الراهبات في الصعيد.

الرواية زاخرة بشخصيات ثرية، تعكس بذكاء أسئلة عميقة دون مباشرة عن الهوية والاختيارات في حياة الإنسان، كما أنها تستعرض التحولات الاجتماعية في بنيان الطبقة الوسطى العليا لمصر على مدار سنوات طويلة، ذلك أن الجزء الأول الذي قرأناه ينتهي بالتزامن مع النكسة، بينما الأحداث لا تزال متدفقة في الجزء الثاني حتى تلامس ثورة يناير. هذه رواية أجيال ووطن بامتياز.

الرواية: المختلط.
المؤلف: داليا أمين أصلان.
الناشر: دار الثقافة الجديدة 2016.

زاوية أخرى: هذه أول أعمال الكاتبة الروائية، وهي تقيم بالمنصورة، وتعمل كيميائية بمستشفى حكومي هناك، كما أنها أم وربة أسرة أيضًا، ومن المفترض أن يتحول المختلط إلى مسلسل درامي ذو طبيعة خاصة.

الجدار.. الجميع يستمر في الحياة حتى المذنبون، لكن ما ثمن ذلك؟

كان يمكن أن تكون هذه الرواية عادية وعابرة، متدفقة وجاذبة لقارئها بحكم حبكتها التصاعدية، دون أن يعني ذلك أن تكون مؤثرة، قد يرى البعض نفسه في أحد أبطالها الحائرين، لكنه ينسى تفاصيلهم فور أن ينتهي من القراءة، لكن الجدار ليست كذلك بالفعل، والأكيد أنها رواية لافتة في مسيرة الأدب الذي يكتبه جيل جديد من الروائيين في مصر ممن هم في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من عمرهم.

ولعل السر وراء تحول الجدار من رواية عادية إلى مهمة هو قدرة المؤلفة "نورا ناجي"، على الإمساك بالتفاصيل بإحكام، وانتقالها الذكي في الأزمنة السردية دون الاعتماد على تسلسل زمني تقليدي (يبدأ الفصل الأول في سيول بكوريا الجنوبية، بينما الفصل الذي يليه تدور أحداثه في القاهرة 2009، قبل أن ننتقل في نهاية الربع الأول من الراوية إلى دبي في عام 2010)، وهو أمر يجعل القارئ في حالة انتباه دائم ومستمر دون أن يؤدي ذلك إلى انفصال أو ارتباك، ثم هناك ذلك الاعتناء الواضح ببناء الشخصيات الرئيسية والمساعدة في الرواية، خاصة وأنها ضمت تنوعًا غنيًا ومثيرًا للشخصيات فمنهم المصري والخليجي والهولندي والكوري، ورغم هذا التنوع، فلم تقع أي شخصية منهم في فخ النمطية والاستسهال، ويبدو واضحًا أن معظمهم مستلهمًا من شخصيات واقعية، ولا بد من الإشارة أيضًا إلى أنه رغم أن "الجدار" تدور أحداثها في سنوات ملتهبة بالأحداث السياسية وتداعياتها الدموية المرعبة، إلا أن هذه الأحداث رغم تشابكها في

تفاصيل الرواية لم تنجح في أن تسقطها في دوائر المباشرة والوعظية، وإنما تم استخدامها بدرجة مثالية، جعلت الرواية تدور في زمنها وليس في الفراغ، وتؤهل "الجدار"—في ذات الوقت— لأن تصبح مرجعًا إنسانيًا مهمًا لما فعلته هذه السنون في البشر.

حياة، بطلة الجدار—المستوحى اسمها من حياة بطلة رواية "ذاكرة الجسد" للجزائرية أحلام مستغانمي— تعمل مترجمة للأخبار القادمة من كل وكالات الدنيا، لتقوم بصياغتها؛ حتى تتمكن المذيعة الحسناء التي خضعت لعشرين عملية تجميل في وجهها من التحدث عنها بشكل يجعلها تبدو على معرفة بما يحدث. المشكلة أنها تفعل ذلك في آخر بقاع الدنيا التي يمكن أن توجد فيها مصرية بمفردها تواجه أفكارها المرعبة وكوابيسها الشريرة وحيدة كل يوم، هناك في سيول بكوريا الجنوبية.

من قبل سيول، مرت حياة لفترة بدبي، حيث يعيش والدها الذي انفصل عن والدتها مبكرًا، عقب وفاة الأخيرة المفاجئة التي تزامنت مع انطلاق شرارة ثورة 25 يناير، فطفق المصريون بالملايين في الشوارع يبتهجون بانتصار بدا حينها أنه فارق وعظيم، بينما كانت حياة تبكي وحيدة أمها التي فارقتها.

في دبي، عقب رحيل اضطراري بدافع رحيل الأم وخيانة الحبيب كما ستكتشف لاحقًا، كادت حياة تقع في هوى سعود، ذلك الشاب الإماراتي المثقف الوسيم، لكنها كانت تعرف جيدًا أنها لن تحب من جديد إلا إذا تعافت من حبها القديم، للدقة إذا تسامحت معه، وكان ذلك ليس بالأمر الهين. ليس لأن حبها لخالد كان عاصفًا ومزلزلًا، بقدر ما كان ذلك الحب الذي إذا انكسر فإنه يسحب روحك ويلقي بها في ثقب أسود. كانت حياة إذن في كل هروبها المتتالي من القاهرة إلى دبي إلى سيول تبحث عن روحها المفقودة. كانت مهمة البحث ستكون أسهل لو فعلت ذلك في زمن آخر، لكنها فعلته على إيقاع أغاني الموت الدائرة في المنطقة، وفي العالم كله

دون انقطاع؛ فازدادت المهمة صعوبة.

هكذا تجد حياة نفسها تمارس ذلك الطقس المرعب (جمع الصور الوحشية المؤثرة هي هوايتي الغريبة، صور أطفال محترقين، نساء يحاولن مقاومة موج البحر، وهن يحملن أطفالهن الرضع الميتين، رجال غارقين، أطفال أقرب للهياكل العظمية، بيوت مهدومة، عربات متفحمة، أكتفي بأفكاري المريضة وهي تسترجع صور اليوم في عقلي، بانتظار خروجها من الطابعة، لتظل ماثلة أمامي ما تبقي لي من العمر) ثم أنها لا تكتفي بذلك. في غرفتها الصغيرة بأحد شوارع كوريا الباردة، تضيف هذه الصور إلى جدار السري، تعلق كل يوم صورًا جديدة تعكس مأساة ورعب أن تعيش في هذ العالم، ثم تجلس على ضوء ضعيف شاحب، تتأمل هذه الصور وما وراءها من قصص تعتصر الروح (أهلوس كعادتي كل ليلة، كل ليلة يخرج أحدهم من الجدار ليظل جالسًا بجواري طيلة الليل، يقص حكايته كاملة على أسماعي، أو يظل مبتسمًا بلا صوت، أحيانًا يبكون، يبكون فقط طيلة الليل، أستيقظ في الصباح لأجد الشراشف مبتلة، وكأنما غسلها المطر، أبحث عن مصدر لتسرب الأمطار داخل البيت فلا أجد، أرتجف وأقشعر، هل يخرجون حقًا؟ هل أهلوس، أم أن هذا المنزل مسكون؟)

تتكشف انكسارات وهزائم حياة تدريجيًا، غياب الأب بروحه، رحيل الأم وقد اكتشفت حياة عقب وفاتها صندوقًا مغلقًا وضعت فيه الأم رسائلها التي لم تبعث بها قط إلى حبيبها الأول "حسن"؛ فترى حياة نفسها تكرر أوجاع أمها، تحب من غادرها ولا تجد سبيلًا للقرب أو للنسيان، ثم تتجلى كبرى انكسارات الروح عندما نعرف ما جرى في تلك الساعة من أيام ثورة يناير المتوهجة. عادت حياة من هجرة مؤقتة إلى دبي إلى مصر؛ تلبي نداء الناس في الشارع، لم تخرج في مظاهرات أو تقف تحت منزلها في لجنة شعبية، لكنها استشعرت أن واجبها يحتم أن تعود الآن حتى ولو اكتفت بالبقاء في المنزل، لكن خالد، الحبيب، الذي كان سيتزوج بأخرى بعد

أسابيع قليلة، كان فرحًا منطلقًا يهتف مع المتظاهرين في الشوارع، ولما علم عبر ما كتبته في فيسبوك أنها عادت؛ عاد إليها، وعلى إيقاع الثورة في الشوارع انغمسا في لقاء جسدي نادر لم يحدث من قبل أو من بعد، لكن النشوة انكسرت عقب اللقاء على الفور، ووجدت حياة نفسها تتخذ ذلك القرار المرعب، تتخلص من جنينها بعدما اكتفى خالد بالأسف والاعتذار وطأطأة الرأس. هذا إذن يفسر لك تلك الصورة السوداء المستقطعة من سونار، وتظهر فيها نقطة بيضاء صغيرة في قلبها، وقد علقتها حياة على جدارها المرعب في منزلها بكوريا. إنها صورة طفلتها التي لم تأت قط.

لكن "تيو جودفريد" يظهر، ذلك الصحفي الهولندي المشبع بالحياة، يحاول أن يخرج حياة من جحيمها، فتصده، فيحاول، يحتويها فتبتعد، يخدش صمتها فتتمسك بالوحدة، تخبره بأنها فاقدة الإيمان بالحب والناس والزواج والله، يقول لها: "الإيمان هو العنصر الوحيد اللازم لاستمرار الحياة من دونه، نحن مجموعة من الزومبي بلا أمل، ما الذي يفرق بينا وبين الميتين في القبور برأيك؟ نحن نملك إيمانًا بأن غدًا قادم، إيمانًا بالعدل، بالخير، بالحياة."

تيو ليس داعية إسلاميًا بالقطع، هو أقرب للملحد من أي شيء آخر، لكنه يعرف جيدًا السر الذي يساعد المرء على أن يعيش في هذه الدنيا. بعد طول مقاومة، تعترف حياة لنفسها بأنها تحب "تيو"، لكن الخطوة التالية تستوجب الخلاص مما مضى. في القاهرة وفي ذات المقهى الذي التقت فيه خالد لأول مرة، يلتقيان مجددًا بعد انقطاع دام لسنوات، صار هو أبًا، وصارت هي في آخر مراحل التطهر مما جرى، تخبره (أريد تفسيرًا لكل ما حدث. أريد أن أنتهي منك. كيف أفعل ذلك دون خاتمة)، يرد (أنت وأنا مسكينان، لكن اليوم تبدئين حياة جديدة).

في كوريا عندما تعود مجددًا، ترى حياة ما فعله "تيو" في جدارها المرعب، لقد أزال كل صور الموتى والغارقين والمعذبين، ووضع بدلًا منها

صورًا لحياة، التي تقترب منه الآن وتحتضنها لتلتقط أول صورة تجمعهما معًا، وخلفيتها جدار غادرته كل الكوابيس.

في رسالتها الأخيرة لخالد بعدما أصبح اسمها "حياة جودفريد" تقول: "الجميع يستمر في الحياة يا خالد، حتى المذنبون". هذا حقيقي فعلًا، لكن ربما على المذنبين أن يدركوا ذلك فعلًا، وأن يعرفوا أن ثمة اتجاه إجباري واحد من أجل أن يستطيعوا يومًا ما أن يهدموا ذلك الجدار الذي يحول بينهم وبين الاستمرار في الحياة.

الرواية: الجدار.
المؤلف: نورا ناجي.
الناشر: دار الرواق– 2016.

زاوية أخرى: هذا هو العمل الروائي الثاني للمؤلفة التي أقامت بالفعل أكثر من عامين في كوريا الجنوبية، الأمر الذي أضفى مصداقية حقيقية على الجزء الذي تدور أحداثه هناك.

موسم صيد الغزلان.. سطو غير مسلح على العقل

في روايته السادسة "موسم صيد الغزلان" التي تصدر خلال عشر سنوات، يختار أحمد مراد أحد أكثر الروائيين شهرة وتحقيقًا للمبيعات وإثارة للجدل في العقد الأخير، أن يعود إلى عوالم "الهلوسة" و "الخيالات" و "العوالم المتداخلة"، التي ساعدت روايته الثالثة "الفيل الأزرق" في أن تدخل القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية في الرواية، وفتحت الباب أمام تحويلها لفيلم سينمائي بنفس الاسم، حقق إيرادات ضخمة اقتربت من خمسة وثلاثين مليون جنيه، وهو ما كان له أثرًا على انتشار الرواية ذاتها، حتى تكاد تصبح هي الأكثر مبيعًا له.

الأحداث في "موسم صيد الغزلان" تدور بعد نحو خمسين سنة تقريبًا من الزمن الحالي، حيث اختفت السيارات، وحلت بدلًا منها "الطائرات" كوسيلة مواصلات سهلة للانتقال من مكان لآخر، وقد صارت المعرفة "كبسولة" بالمعنى الحرفي يتم زرعها في جسد الإنسان فتنساب لديه كل المعلومات والعلوم، ويصبح قادرًا على فهم كل لغات الدنيا، وهناك شريحة في جسد كل شخص تحتوي على كل معلوماته، وعبر نظارة يرتديها المرء يمكن أن يتعرف صفات الشخص الآخر الذي يقابله وخصائصه، وقد أصبح في متناول الجميع أن يشاهدوا لحظاتهم الماضية عبر تسجيل فيديو يظهر أمامهم في أي مكان، بل حتى يمكنهم استعادة آخر المشاهد التي عاشوها مع من يحبون قبل رحيلهم ويجسدونها تجسيدًا ملموسًا يكاد يصبح واقعًا، ويمكن لأي شخص أن يستبدل 95% من أعضاء جسده التالفة بأخرى ممتلئة الكفاءة والصحة، وقد وصل متوسط العمر إلى خمس وتسعين سنة، ويمكن ممارسة الجنس مع فتيات ليل محترفات لسن أكثر من

"روبوت" نفخت فيه روح الشبق والغواية، وزال تنظيم داعش من الوجود ليظهر بدلا منه تنظيمًا لا يقل شراسة إلى حد أنه يستخدم "القنابل النووية" في عملياته الإرهابية، وقد تحولت القاهرة إلى "عاصمة قديمة" مهجورة وموحشة، وباتت زيارة أحد أحيائها الراقية البالية مثل: الزمالك يتطلب اتخاذ الاحتياطات الصحية والأمنية.

عالم كابوسي بامتياز تبشر به الرواية في المستقبل الذي ليس بعيدًا، دون أن تنشغل كثيرًا بالبحث وراء الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج باستثناء الإشارة إلى زلزال مدمر أو حرب مستعرة طالت شرورها الحياة القديمة التي نعيشها الآن.

تقوم "موسم صيد الغزلان" على حبكة مشوقة، حتى وإن شابها بعض التقليدية في بنائها الأول، "نديم" عالم في البيولوجيا وعلم النفس التطوري، اعتاد أن يلقي محاضرات درامية صادمة عن معنى الحياة والخلق والأديان، تنتهي عادة بالتشكيك في وجود إله، مقدمًا في سبيله لذلك عشرات الحجج والأسباب التي يتداولها الملحدون منذ نشأة الأديان وحتى اليوم "أنا مش ممكن أؤمن بشيء لو اخضعته للتجربة وشفته بعيني، ولو فيه إله بيمثل الخير فليه بنخاف منه؟ ولو حكيم ليه خايفين من المستقبل؟ ولو عارف كل حاجة ومقدرها مسبقًا ليه طلب ندعوه؟ ولو متواجد في كل مكان ليه بنبي له بيوت العبادة؟ إذا كان فيه إله خالق فهو ما يشبهش الإله اللي حكت عنه الكتب السماوية، الكتب اللي شعت في يوم من الأيام المتطرفين على ضرب قنبلة نووية تبيد الملايين باسم الدين".

ما يثير التساؤلات في المقتطع السابق من الرواية، هو أن يتطور كل شيء خلال الخمسين عامًا القادمة، بينما تبقى اللغة المستخدمة في الحوار كما هي، اللغة العامية المصرية المعاصرة، فهي لم تنحو للفصحى مثلا على سبيل التطوير، أو تذهب إلى نحت مصطلحات لغوية جديدة كما هو طبيعي ويحدث بالفعل، وفي كل الأحوال فإنه ثمة إفراط واضح في استخدام

الحوار باللهجة العامية بالرواية، وهو أمر وبخاصة في سبيل شرح أو تبسيط بعض الأفكار أو محاولات النظريات العلمية والفلسفية التي تزدحم بها الرواية، قد يؤثر على سلاسة استقبالها وليس العكس.

عقب واحدة من محاضراته الصاخبة هذه، يلتقي نديم طارق وهو طبيب أعصاب غريب الأطوار، وبرفقته زوجته "تاليا" الغجرية الفاتنة التي فور أن يلتقيها نديم، يرى في عينيها نداء الغواية، فيظن أنها وفقًا لقواعده الذاتية في التعامل مع النساء، غزالة أخرى تدعوه لأن يصطادها، دون أن يدري بأن الفخ قد نصب له، وأن موسم صيده هو الذي بدأ.

يذهب نديم إلى قصر طارق وتاليا المخيف في "أحراش الزمالك"، ويجد نفسه موافقًا على الدخول في صفقة تقضي بأن يخوض تجربة روحية يتحرر فيها من مظاهر العصر المستقبلي الذي يعيش فيه ليعيد اكتشاف ذاته بأن يغوص في ذكرياتها والأزمان الفائتة التي عاشت فيه روحه، وذلك في مقابل ظاهري يتلخص في الفوز بالبيانو الأصلي الذي عزف عليه الموسيقار الفذ شوبان أروع ألحانه، وقد راه متألقًا في بهو قصر الزمالك العجيب، لكنه يدرك في داخله يقينًا بأنه لا يريد البيانو، أو شوبان، وإنما يريد ذلك الغزال الذي يمارس غوايته عليه باحتراف – تاليا.

هكذا يدرك القارئ أن ما سيقدم عليه نديم سيغير حتمًا من حياته، هكذا تقول قواعد الحبكة المعروفة، ليبقى الشغف هنا مرتبطًا بما سيحدث لنديم خلال تجربته هذه وكيف سينتهي به هذا التغير؟

يرحل نديم عبر تجربته الروحية هذه إلى أزمنة قديمة وقريبة، يجد نفسه حاويًا يجيد ترويض الثعابين، وحاخام يهودي في زمن الفاطميين، وحدادًا يكوي الحديد بالنار، وتتكشف له وللقارئ تدريجيًا مفاتيح ألغاز حياته، سر تشوه علاقته بزوجته مريم، وسبب تجمد حواراته مع ابنته "سلاف" عند لحظة معينة، والأهم، ولعله السر الأكثر خطورة ورعبًا، السبب وراء

إغواء طارق وتاليا له حتى يخوض هذه التجربة المزلزلة، وهو أمر ينتهي بأن يكتشف نفسه ومعنى الحياة وكينونة الإله، وتلك عادة صدمة لا يتحملها كل البشر.

على الرغم من قلة الشخصيات الرئيسية في "موسم صيد الغزلان"، فإنها تزدحم إلى حد التشوش أحيانًا بتفسيرات علمية ونفسية وما ورائية للأحداث، كما أنها تخلط عن عمد في هوامشها التفسيرية، بين الإشارة إلى معنى مصطلح علمي معروف مثل "ديجافو" والمقصود به "مشاهدة أحداث شوهدت من قبل"، وبين مصطلح علمي أو لغوي آخر وليد خيال الرواية وغير معروف في الزمن الحالي، كتعريفها مثلًا لمصطلح "زرع المهارات" باعتباره: "تقنية علمية تم اعتمادها عام 2028، تستخدم البرمجة العقلية لزرع المهارات الحسية في مناطق محددة بالعقل"، وهو أمر يسبب الارتباك للقراء، الذين سيجدون أنفسهم أيضًا في ارتباك آخر عندما يفهموا، أو بعض منهم على الأقل، أن السبيل الذي تدعو له الرواية لأن يصل المرء إلى نفسه، ويجد طريقه الضال إلى الله، لن يكون إلا "باستحضار الأرواح التي كان عليها المرء في أزمان سابقة"، وهو طريق، فضلًا عن أنه يروج لفكرة غير علمية أو ممكنة التطبيق وبلا أي آثار مادية ملموسة، وبالتالي من الصعب أن تكون سبيلًا لإقناع غير المؤمنين بالأديان، فإنها أيضًا تطرح سؤالًا وجوديًا حول مسئولية الآلة في أن تتحمل روح أحدهم في عام 2070 آثام خطايا وقعت فيها نفس الروح في أزمنة بعيدة قبل مئات السنين، وهو أمر غالبًا سيؤدي بأهل الإلحاد أن يستمروا في طريقهم وليس العكس.

ستثير "موسم صيد الغزلان" بأسلوب أحمد مراد الخاص اللافت، ونفسه السينمائي الواضح، واهتمامه ببناء عالم شاهق من الخيال والحسية، جدلًا متوقعًا، سواء على مستوى أفكارها ومدى وضوحها أو تشرذمها، أو طريقة تفكيك خيوطها، والتي لجأ فيها المؤلف إلى ترك بعض أطرافها متاحة للقارئ الذكي، بينما أخفى هو عن عمد بالخيوط الأكثر فاعلية،

واحتفظ بها لنفسه في الثلث الأخير من الرواية، وهو أمر قد لا يروق لبعض القراء المخضرمين الذي يفضلون في هذه النوعية من الروايات المشوقة أن يكتشف هو الخدعة قبل أن يكشفها المؤلف له، كما أن التفسير نفسه لطريقة جذب "الغزال/ الصيد" إلى "الفخ/ موسم الصيد"، تم بطريقة متتالية حادة أشبه "بالسطو غير المسلح على العقل"، وهي تلك الجملة التي قالها نديم لطارق في ذروة تجربتهما، وكأنه –بشكل لا إرادي– يرسل تحذيرًا مبطنًا لقارئ "موسم صيد الغزلان".

الرواية: موسم صيد الغزلان.
المؤلف: أحمد مراد.
الناشر: دار الشروق– 2017.

زاوية أخرى: محبو أحمد مراد لا يزالون يعتبرون روايته الثانية "تراب الماس" هي أيقونته الروائية الأهم، بينما كاتب هذه السطور يبدو منحازًا إلى روايته الرابعة "1919"، إذ تبدو أنها أكثر رواياته تجديدًا وخروجًا على "ثيماته" الأساسية في عمله الروائي، حتى إنها الرواية الوحيدة التي تخلو من "لغز غامض" وإن لم تخل من الجريمة، وهي في كل الأحوال تستحق القراءة باهتمام أكثر مما جرى لها.

طُبع في بيروت.. كل شيء ليس كما يبدو في المرآة

"انتهت الحرب (الأهلية) بتدمير سبع مطابع في بيروت وضواحيها ونهب اثنتي عشرة وإقفال عدد مماثل وتقادم آلات ومعدات غالبيتها بحيث عجز أصحابها عن تجديدها؛ فدخل مجال الطباعة وافدون جدد كما تسلق إلى المراكز السياسية الكبيرة أمراء حرب أبعدوا الزعماء التقليديين. "مطبعة كرام إخوان 1908" كانت من القلة القليلة التي بقيت على قيد الحياة".

يأتي هذا المقتبس الموجز في الثلث الأخير تقريبًا من رواية "طبع في بيروت"—دار الساقي— للكاتب اللبناني جبور الدويهي، وكأن المؤلف يلخص به تاريخ المطابع والحروب والسياسة في لبنان، وكيف أن "العابرين" دومًا إلى شواطئ الثروة والنفوذ على مر العصور هم "محترفو تجارة الحروب" و "النصابون".

تنساب الأحداث في "طبع في بيروت" بجاذبية ونعومة آسرة، ويتضح الجهد في إحكام بنائها الدرامي، كونها ورغم أنها تتخذ من سيرة المطابع وعالمها السحري في البلد الذي عرف بأنه "أبو الطباعة في المنطقة" أرضًا له وما يتتبعه ذلك من سيل متدفق من المعلومات المتداخلة، إلا أن الرواية تنجو من أي تسجيلية تقريرية، وتشتبك في ذكاء وبتصاعد درامي مشوق مع مصائر بشر وأرواح صنعوا بحروف الطباعة أمجادًا وانتصارات وسرقات، وكتبت عليهم ذات الحروف، قصصًا وعبرًا.

فريد أبو شعر، ذلك الشاب الذي به لمسة من شرود الشعراء وجنونهم، ابن الحلاق الذي قتل في انفجار عنيف من تلك الانفجارات التي تدوي

في بيروت بإيقاع كوني منتظم، نراه منهكًا وقد دار على أكثر من عشرين دار نشر بيروتية، يبحث عمن ينشر له "الكتاب"، كتابه الذي وضع فيه ما يعتقد أنه عصارة زمنه والأزمان السابقة، يبدو لمن يقرؤه شعرًا، لكنه ليس بالضرورة أن يكون كذلك، ثم لما تنغلق في وجهه كل الأبواب، يجد فرجة أمل في "مطبعة كرم إخوان"، التي يفخر صاحبها "لطفي كرم" وولده "عبد الله" بأنها واحدة من أقدم مطابع بيروت وأعرفها، سيعمل فريد هنا مصححًا لغويًا، دون وعد بنشر كتابه العجيب، الذي يظل بغلافه الأحمر الجاذب يرافقه خلال ساعات دوامه في المطبعة، والتي يكتشف أنها ليست كسائر مطابع بيروت، ليس لأنها تحتوى على آلة طباعة ألمانية ضخمة من طراز "هايدلبرج"، وليس لأنها تقوم بطباعة شتى الأنواع، من دليل التليفونات إلى عقود الصفقات التجارية الضخمة التي تنظمها الدولة، مرورًا بمجلات الموضة وملصقات ملابس النساء الداخلية؛ وإنما لأن المطبعة ملحقة بمنزل "عبد الله" ووالده، وفي هذا المنزل تسكن فتنة يونانية لبنانية خلابة، يعرف أنها زوجة عبد الله، وأنها تدعى "بيرسيفون"، وهو اسم مستوحى من أسطورة يونانية قديمة، تشكلت على إثرها فصول السنة الأربعة.

عبر لقاءات بعضها صدف وبعضها الآخر صدف مرتبة، ومعظمها صامت لا يتخللها سوى كلمات عملية قصيرة، يدرك فريد أن الجنة هناك بين شفتي بيرسيفون، وتدرك الأخيرة أن ثمة نداء بالمغامرة مع ذلك الفتى النحيل، ولعله ينسيها قلة حيلة زوجها مع جسدها وافتراقهما الروحي بعد أسبوع واحد فقط من الزواج، تتقدم بيرسيفون خطوة، تطلب من المعلم "أنيس الحلواني" أحد أقدم عمال المطبعة وأكثرهم خبرة ومهارة أن يطبع كتاب "فريد" نسخة واحدة فقط، على أن يحتفى في هذه النسخة بخامات الورق وخطوط الكتابة، يفعل الحلواني ذلك وقد اعتاد الطلبات الغريبة لأهل المكان، متحمسًا في ذات الوقت لاستعادة أوقات من شغف ومتعة الطباعة اليدوية بعيدًا عن كآبة الطباعة الآلية الحديثة، وعندما يجد فريد نسخة من كتابه ذات صباح على مكتبه، ولا يعرف كيف حدث ذلك، ومن

فعلها، يدرك بأن في ذلك إشارة بما تحمله له "كرم إخوان" من عطايا، لعلها لن تقف عند حدود نسخة وحيدة من كتابه الوحيد، وإنما ستصل ذروتها في هذا المساء الشتوي البارد، عندما يبقى في المطبعة لساعات متأخرة في الليل بحجة الانتهاء من مراجعة دليل تليفونات ضخم، ليستيقظ من غفوة –استحوذت عليه– على وجه "بيرسيفون" وهي تبتسم له، فيحتضنها في قوة وصمت، قبل أن تحتضنهما بعد ذلك بثوان فراغات مطبعة "هايدلبرج" الألمانية الضخمة، وكأنها تطبع رائحة أجسادهما المتشابكة في حروفها وأحبارها، ودون أن ينتبهوا لأو لعلهم فعلوا وتغافلوا عن عمد– أن عبد الله زوج بيرسيفون قد زرع في المكان كاميرات للمراقبة منهم تلك التي سجلت عناقهما قبل أن يغيبا في ظلال الـ «هايدلبرج".

في اليوم التالي، يجد "فريد" نفسه متهمًا من قبل مندوب من الإنتربول الدولي حضر خصيصًا إلى بيروت، بأنه شارك في عملية تزوير كبرى لملايين اليوروهات الأوروبية، عبر عملية تهريب معقدة بين بلدان إفريقية وأخرى في أمريكا اللاتينية، وقد بدأت خطوط هذه العملية كلها من هنا في بيروت، تحديدًا في مطبعة من مطابع بيروت لديها ماكينة طباعة حديثة فائقة القدرات إلى حد أنها قادرة على طباعة اليورو بجودة تقارب العملة الأصلية، وتجعل من الصعب على غير المتخصصين اكتشاف الفروق. دليل الإنتربول في ذلك واحد لكنه مهم. النسخة الوحيدة من كتاب فريد تمت طباعتها على ورق ذات جودة مرموقة، وهو مطابق للورق الذي طبع عليه العملات الأوروبية المزورة. يعرف الجميع بمن فيهم المحقق اللبناني وضابط الإنتربول الهولندي الأصل، والقاضي الذي ينظر في أوراق القضية، أن الموضوع أكبر بكثير من قدرات شاب فوضوي مثل "فريد أبو شعرة"، لكن لا بد من أن يكون هناك متهمًا، فلماذا لا يكون هو؟

في سجنه لا يشعر "فريد" بأي ندم، سوى بأنه قد لا يعانق "بيرسيفون" مرة أخرى، دون أن يدري بأنه كان ضحية عملية تزوير كبرى جرت

وقائعها في مطبعة كرام إخوان، وتعاون فيها سرًا الأب وابنه وعاملهم الأمين "أنيس الحلواني"، مع واحد من أكبر مهربي السلاح والألماس في بيروت والمنطقة، وأنهم عالجوا الموقف بأن دبروا حريقًا التهم المطبعة الألمانية العملاقة، فقضوا نهائيًا على أي أثر لجريمتهم وظفروا في ذات الوقت بسبعة ملايين دولار قيمة التأمين، لم يعرف "فريد" هذا فحسب، بل فاته أيضًا معرفة أن التزوير كان يطول أيضًا تاريخ تأسيس "مطبعة كرام إخوان 1908"، وأنها تأسست بعد هذا التاريخ بعشر سنوات كاملة، وقد استفاد كرم الجد من فوضى نهايات الحرب العالمية الثانية، فقام بالسطو على طابعة كان يملكها رهبان، ثم قام بتزوير تاريخ تأسيس المطبعة ليضفي عليها زمنًا وتاريخًا يمكنه وحفداءه من التباهي لاحقًا، وكأن المصير الطبيعي لمطبعة زور تاريخ تأسيسها أن تكون نهايتها تزوير العملات.

في عالمها المليء بالشخصيات الحية الأخاذة (الشاعر الذي يتسول مطبعة لكتابه –مالك المطبعة الذي احترف التزوير– الزوجة المهملة الملولة التي تبحث عن الضائع منها– العمال الحرفيون الذين تدهسهم التقنيات الحديثة)، تحفل طبع في بيروت بالرمزيات، فكتاب فريد أبو الشعر اسمها "الكتاب" هكذا في المطلق، وكأنه يرمز إلى تراجع قيمة الكتاب وأثره في بلد الطباعة، و «مطبعة كرم إخوان 1908"، هي بالأساس "مطبعة كرام إخوان 1918"، ونحن لا نعرف ذلك إلا في الصفحات الأخيرة من الرواية وكأن التاريخ المزور هو الذي يعيش طويلًا، ثم أن الرواية تزخر بالصفقات بين الأشخاص وبعضهم بعضًا، وجميعم يخسر في النهاية، لكنهم يعودون إلى سيرتهم الأولى مجددًا، فريد يخرج من السجن ويقرأ بضع كلمات من كتابه بالعربية على صديقة أجنبية له في ملهى ليلي، وأبناء كرم إخوان يظفرون بمبلغ التأمين بعد احتراق المطبعة، ولعلهم سيمارسون نشاطهم في الطباعة والتزوير لاحقًا. كل شيء يعود إذن إلى مساره الطبيعي مهما تغير هذا المسار خلال الرحلة، كما أن كل شيء ليس كما يبدو في المرآة كما تقول إحدى الشخصيات في الرواية، فخلف هذه الهيئة الهزيلة لفريد

أبو سعدة يوجد ذلك الشاب المحب المغامر، وخلف تلك الهيئة الأنيقة المتزنة لبيرسيفون تلك المرأة المتعطشة للهوى، وخلف حتى ذلك الشيخ الوقور لطفي وابنه عبد الله، وما يحملانه من تاريخ يبدو عريقًا لأسرتهما ومطبعتهما، هناك هيئتهما الحقيقية كمزورين للعملات، فماذا تخفي بيروت إذن خلفة هيئتها التي تظهر في المرآة؟

تشرح "طبع في بيروت" قطاعًا عرضيًا ضخمًا من المجتمع اللبناني عبر أكثر من مائة عام، مستعرضة جانبًا بارزًا من الأثر الذي أحدثه تحول بيروت إلى مركز بارز للطباعة في المنطقة، وكيف استخدمت حروف الطباعة في الحفاظ على درر الكتب والآثار، وفي صناعة جبال من الأكاذيب والتفاهات والمزورات على حد سواء، وكيف نبتت بين هذا وذاك قصص الهوى المعقدة، ونجاحات وانكسارات الأنفس، وكيف جرى كل ما سبق على إيقاع الرصاص والتفجيرات التي لا تتوقف أبدًا في بيروت، تمامًا كأصوات المطابع التي لا تزال تهدر وتزين كل ما يخرج منها بشيء أو أثر من تلك الحكايات البيروتية العتيقة.

الرواية: طبع في بيروت.
المؤلف: جبور الدويهي.
الناشر: دار الساقي– 2016.

زاوية أخرى: مؤلف الراوية كعادة غالبية مثقفي لبنان، يقرأ ويكتب بالفرنسية، لكنه عندما يكتب الرواية يختار دومًا أن يكون ذلك بالعربية. ترشحت له من قبل روايتان هما "مطر حزيران" و "شريد المنازل" لجائزة البوكر العربية "القائمة القصيرة"، وكلتاهما تستحق القراءة عقب قراءة "طبع في بيروت" بالطبع.

العدد صفر.. قصة الجريدة التي تقتلك كل يوم

هذه آخر روايات الكاتب الإيطالي الأشهر "امبرتو إيكو". نشرها قبل وفاته في 2016 بعام واحد فقط، وكأنها رسالة يودع بها العالم مفادها "كل ما تعيشونه كذب أيها السادة".

بطلنا هو "كولونا" كاتب الظل الذي يعيش في ميلاونو، يكتب الروايات البوليسية لصالح مؤلفين آخرين ويترجم من وإلى الألمانية بعض الأعمال الرديئة، ويبحث عن حب حقيقي أو مغامرة جديدة وهو في الخمسينيات من عمره؛ لأن "الحياة لم تكن جديرة بالاهتمام" كما يصفها هو بنفسه. في صيف 1992، يأتيه العرض من "سيماي" وهو صحفي مخضرم معروف في الوسط بأنه ليس صاحب تجارب ناجحة لكنه موجود دومًا في الوسط الصحفي. سيتعاونا معًا برفقة فريق آخر من الصحفيين قد يصل إلى ستة؛ من أجل إصدار الاعداد التجريبية من جريدة جديدة اسمها الغد، وصولًا إلى العدد زيرو الذي يسبق طرح أول عدد فعلي من الجريدة في الأسواق. في الاجتماع الأول يجتمع الفريق معًا، جميعهم باستثناء سيماي وكولونا يعرفون الغرض الرئيسي من الجريدة. صاحبها رجل أعمال إيطالي فاسد يريد إصدار الأعداد التجريبية من الجريدة بهدف أن يدرك منافسوه ورجال المافيا ومسئولو الدولة أنه سيكون لديه جريدة عن قريب، وهكذا يمكن أن يستخدمها وسيلة لتصفية منافسيه وابتزازهم وللوقوف في وجه الدولة حينما يتطلب الأمر ذلك، لكن الجريدة لن تصدر أبدًا. عددها الأخير سيكون هو العدد صفر. المفارقة أن الجريدة اسمها الغد.

هذا ما يعرفه كولونا وسيماي ورجل الأعمال، لكن باقي الفريق من

الصحفيين الذين جاءوا في حماس شديد من أجل أن يمارسوا الصحافة التي يحبونها بعيدًا عن صحافة محلات الحلاقة والنميمة لا يعرفون ذلك، فما الذي سيحدث في الاجتماعات التحريرية التي ستجمع بينهم؟

سيفتتح "سيماي" الحديث معهم قائلًا "أبي عودني ألا أصدق الأخبار كما لو كانت منزلة، الصحف تكذب والمؤرخون يكذبون، واليوم التلفزة تكذب أيضًا. أرأيت نشرات الأخبار في السنة الماضية (يقصد 1991) في أثناء حرب الخليج، صورة الغاق الملطخ بالقطران وهو يحتضر على سواحل الخليج العربي؟ لقد تأكد بعد ذلك أنه في هذا الفصل يستحيل أن يوجد طائر الغاق في الخليج وأن الصور تعود إلى ثماني سنوات قبل ذلك أثناء الحرب بين العراق وإيران"

هذه أراء توحي بأن الجريدة ستكون ثورية، ولا تقارن بما سبق من صحف إيطالية نخرها الفساد والصفقات، لكن عند بدء العمل الفعلي في الأعداد التجريبية تتبين أهداف سيماي وصاحب المال تدريجيًا "الأبراج. يا إلهي. الناس لا يحبون أن تقولي لهم إنهم في الشهر التالي سيصابون بالسرطان. اصنعي تنبؤات تماشي جيدًا أحوال الناس جميعًا. أعني أن قارئة في سن الستين لن تتفاعل مع نبأ مستقبلي مفاده أنها ستعثر على حبيب عمر في مقتبل الشباب".

ليس هذا فحسب خذ هذه أيضًا، يقول رئيس تحرير الجريدة التي لن يقرأها القارئ أبدًا "إذا تحدثنا عن مقتل فالكوني (قاض قتلته المافيا) كان علينا أن نتحدث عن المافيا وأن نعيب تهاون قوات الأمن وأشياء من هذا القبيل بضربة واحد سنصبح أعداء الشرطة والحرس وكوز نوسترا (اسم آخر للمافيا الصقلية). في العادة أكثر الحلول حذرًا هو الالتجاء إلى ما هو عاطفي، كإجراء حوار مع الأقارب. لو انتبهتم قليلًا لرأيتم أن قنوات التلفاز أيضًا تفعل ذلك، عندما يدقون جرس باب منزل الأم التي أذابوا ابنها في العاشرة من عمره في الأسيد: سيدتي، ماذا كان شعورك عندما علمت بموت

ابنك؟ تبتل عيون الناس بالدموع ويذهب الجميع راضني. هناك كلمة ألمانية رائعة **schadenfreude** تعني الاستمتاع بمآسي الغير. هذه هي العاطفة التي ينبغي للجريدة احترامها وتعزيزها".

ثم وعندما يتناقشون حول كيفية مناقشة قضايا مثيرة لجذب القارئ كالحديث عن تجمعات الشواذ مثلًا، يقول "لست أفكر في اللوطيين بصفة عامة يا جميلتي أنا أؤمن بالحرية كل وشأنه ولكنهم موجودون في السياسة والبرلمان وحتى في الحكومة يظن العامة أن اللوطيين هم الكتاب وراقصو البالية فقط، لكن بعضهم يحكموننا دون أن نطن إليهم. إنهم يكونون مافيا ويتعاونون فيما بينهم وهذا يمكن أن يجرب مشاعر قرائنا. ماذا يمكنك أن تقول عن اللوطيين في السياسة لكن حذار دون ذكر اسماء لا نريد المثول أمام المحكمة يكفينا تحريك الفكرة، أو الشبح، إحداث رعشة، حس بالنفور.."

هل لاحظت أن هذا منهج صحفي مصري أصيل؟ هل تم اقتباسه من إيطاليا أم نقله الإيطاليون من مصر؟ أم أن ما يجمع بين مصر وإيطاليا ليس البحر المتوسط فقط، وإنما أساليب التجارة بالصحف والناس لصالح رجال المافيا مهما كانت أسماؤهم وجنسياتهم. مصري أو إيطالي؟

الموضوع ليس صدفة فعلًا، خذ هذا المقتبس من الرواية والذي يتحدث عن طريقة صناعة العناوين للموضوعات(يقول برجادوتشيو "غضب موسكو؟ أليس مبتذلًا أن نستعمل دائمًا عبارات تفخيمية مثل هذه، غضب الرئيس، غضب المتقاعدين إلى غير ذلك". لا. أجبته "القارئ ينتظر بالفعل هذه العبارات؛ لأن كل الصحف عودته إياها. القارئ لا يفهم إلا إذا قلت له إننا لم نخرج بعد من عنق الزجاجة، والحكومة تنذر بالدموع والدماء والطريق في صعود والرئاسة مستعدة لخوض حرب، لا للشيطنة. نحن في عين الإعصار. قوات الأمن تصرفت بكل مهينة). كما مرة –بذمتك– قرأت هذه العناوين في صحف مصرية عتيقة وشابة؟

خلال الأحداث ينجذب كولونا إلى مايا الصحفية الشابة المسكينة التي وجدت نفسها فجأة في قلب هذا "الماخور الصحفي"، تجد نفسها بدورها منجذبة إليه، يتطور حبهما أكثر بالتزامن مع ذلك الكشف المثير الذي يصل إليه برجادوتشيو الصحفي النشط ضمن فريق الغد، والذي يكلفه رئيس التحرير بعمل تحقيق عن "مواخير إيطاليا القديمة" لكنه مشغول بقضية عمره ويكشف بعض من تفاصيلها لكولونا. الدوتشي لم يقتل في الحرب العالمية الثانية. موسوليني لم يتم إعدامه في ساحة لوريتو كما تم الإعلان عن ذلك بعد خسارة إيطاليا للحرب عام 1945. قتل شبيهًا له، وتم تهريب موسوليني إلى الأرجنتين عبر الفاتيكان؛ تمهيدًا لأن يعود ويحي الفاشية من جديد عندما تصبح الظروف ملائمة وكاد يفعل ذلك فعلًا في 1969 مع نشاط كبير لإحدى الجماعات السرية التي ترعف باسم "البقاء في الخلف" تريد أن تستعيد أمجاد الفاشي عبر انقلاب عسكري ترتج له إيطاليا، لكن خطة عودته فشلت في آخر لحظة بعدما تراجعت بعض المؤسسات المتواطئة في الدولة مع الانقلاب عن القيام بدورها.

يحذره كولونا من الاستمرار في التحقيق؛ لأنه يثبت تورط بعض مؤسسات الدولة القائمة في المؤامرة، يستمر بروجاوتشيو في سعيه، حتي يعثروا عليه مقتولًا في أحد شوارع ميلانو الضيقة؛ لتكون وفاته سببًا كافيًا لأن يغلق رجل الأعمال جريدته وهي لم تصل بعد إلى العدد صفر، وليجد كولونا وحبيبته مايا أن سبيلهما الوحيد للحياة هو أن يغادرا ميلانو إلى إحدى الجزر الإيطالية ليراقبا بلادهما، وهي تتحول تدريجيًا إلى دولة من دول العالم الثالث الذي يتعايش فيه الضحايا مع القتلة وهم يقرأون الصحف في هدوء دون أن يدروا بأن بعض هذه الصحف تساهم في قتلهم دون أن حتى أن يصدر منها ذلك العدد الصفري.

الرواية: العدد صفر.
المؤلف: إمبرتو إيكو.

المترجم: أحمد الصمعي "عن الإيطالية".
دار النشر: دار الكتاب الجديد – لبنان 2017.

زاوية أخرى: رواية اسم الوردة التي صنعت شهرة "إيكو" ترجمت إلى أكثر من سبع وأربعين لغة وباعت ملايين النسخ، وتحولت إلى فيلم من بطولة شون كونري عام 1986، لا بد أن تلك الرواية التي صارت مكتوبة بنصف لغات أهل الأرض المعروفة فيها شيء ما يستحق أن تكتشفه بقراءتها.

حصن التراب.. لكن الشتات في داخلنا يا صديقي

رغم أنها مليئة بحيل سردية حديثة تمزج السرد التقليدي بمقاطع صوتية ومصورة من "يوتيوب"، إلا أن رواية "حصن التراب" لمؤلفها أحمد عبد اللطيف– إصدار دار العين– انحازت لزمنها الأصلي (قبل أكثر من نحو أربعمائة عامًا)، حيث الشتات الكبير لأهل الأندلس من المسلمين الذين أجبروا –عقب انهيار دولة مجدهم– على ترك دينهم واعتناق المسيحية ولو كان ذلك بشكل ظاهري، فصاروا يعرفون من هذا الوقت بذلك الاسم الذي تستشعر فيه خليطًا عجيبًا من الشجن والحزن والانكسار "الموريسكيون".

ورغم أن مفتتح الرواية يشير إلى أن وقائعها تجرى في الزمن الحالي، حيث يبدأ البطل الذي لن نعرف اسمه أبدًا –في دلالة واضحة على استمرار الشتات عبر الأجيال– في السعي من أجل الكشف وجمع المخطوطات التي تركها الأجداد وصولًا إلى والده، والتي يرون فيها تاريخ عائلتهم الموريسكية المهجرة وما لاقته من أهوال، إلا أن الرواية سرعان ما تنقل قارئها إلى نهايات القرن السادس عشر الميلادي ليشاهد قبسًا مما جرى للموريسكيين في أيامهم الأخيرة في الأندلس وما بعدها عبر تصفح لأوراق كتبتها أجيال من عائلة "خوان دي مولينا"، ذلك الأب الأندلسي الذي وجد نفسه فجأة مجبرًا على أن يخرج من مدينته الأندلسية "كونكة" بتهمة أنه مسيحي جديد لا يمارس الطقوس اقتناعًا وإنما درءًا للخطر، فيصدر قرار القاضي الإسباني بأن يتم تهجيره وهو نجله الأكبر "ميجل" بينما تبقى في إسبانيا زوجته وبناته "عائشة" و "كارمن" وقد صاروا في حكم قاضي محكمة التفتيش "مسيحيون" يستحقون أن يبقوا في إسبانيا، ولم يكن ذلك يعني سوى أنهم بدورهم قد دخلوا متاهة الشتات وإن بقوا في وطنهم.

تبحر الرواية بروح شجية في ذلك العالم الساحر والمرعب، عبر تمكن لافت للمؤلف من سير الشخوص والأماكن والأحداث وتدفقها، وأسلوب اعتمد على تقصي التاريخ في أماكنه الأصلية بزيارات ميدانية قام بها المؤلف، لنعرف أن التهجير سيطول غالبية الموريسيكين. سيبقى البعض منهم متدثرًا بمسيحية علنية، لكن المحاكم ستطولهم واحدًا بعد الآخر، سينتزعون منهم الأطفال ويمنحونهم لأسر كاثوليكية "أصلية". سيهرب البعض إلى حصن التراب، تلك القرية الأندلسية الحانية، التي ستعرف لاحقًا باسم إسباني صريح "إثناتوراف"، وسيظن الهاربون من جحيم محاكم التفتيش أنهم سيجدون ملاذًا آمنًا، لكن الجحيم ستلاحقهم أينما ذهبوا، وستتهاوى حصونهم المقاومة واحدًا بعد الآخر كما التراب.

بعد وفاة والده، سيجد بطل الرواية نفسه مندفعًا لأن ينفذ وصية الأب الراحل. يرحل إلى إسبانيا؛ بحثًا عن مخطوطات الأسرة الموريسكية التي ينتمي إليها، هناك في "كونيكا" التي صارت "كونكة" بالإسبانية تتراءى له أمه، تنقل له من عالم آخر، رؤيتها عما جرى، تقول: " الدين لم يكن إلا وسيلة للحشد، مجرد شعار يلتف حوله الجهلاء، الهدف هو السلطة، السيطرة، السياسة. هل تعتقد أن حب السلطة اكتفى بطرد الموريسكيين؟ كيف تفسر إذن امتداد الحرب مع إيطاليا وفرنسا المسيحيتين؟ إنه الجنون".

هكذا تنجو رواية "حصن التراب" من أن تدخل في معضلات دينية تسعى لتفسير ما جرى في الأندلس من فظائع بنيت على أساس ديني، الرؤية العامة تقول بأن الموريسكيين قد تم تهجيرهم وقتلهم وصلبهم وتعرضهم لمحاكم تفتيش؛ لأن منهم من تمسك بإسلامه، وتظاهر بالمسيحية، بينما الحقيقة، ربما تكمن في أن ما حدث لم يكن لأسباب دينية بحتة، ربما لم يتم لأسباب دينية على الإطلاق.

ولعل هذا أكثر ما يميز "حصن التراب" هو أنها لم تسقط في فخ الإحالات على الزمن الحالي، كما أنهم لم تنحاز للتفسير التاريخي السهل

لمأساة الأندلس، ولم تختر أن تندس في صفوف ملوك قشتالة أو آخر ملوك الأندلس من المسلمين، وإنما انحازت إلى تجسيد الانكسارات التي عصفت بأسرة موريسيكية مسالمة، وجدت نفسها فجأة بين شقي الرحى، تخاذل حكام مسلمين إلى حد الخيانة، ووحشية وجشع حكام مسيحيون استخدموا الدين للوصول إلى هدفهم.

تنقل الرواية حوارًا بين ملك إسبانيا ووزيره الأول، يلخص إلى حد كبير ما حدث قبل قرون، وما يحدث حتى يومنا هذا، يقول الملك مخاطبًا وزيره: " في السياسة أنت لا تنظر إلى الجثث التي تطأها بقدميك، بل للخط الذي تراهن على الوصول إليه، وفي طريق الوصول لا ينبغي أن تلتفت للجثث المسجاة خلفك، بينما تفكر أنت في التعايش ولعلك تفكر كذلك فيما تعلمناه من العرب وما تركوه من خير في أرضنا، أفكر أنا في أنهم غزاة لأرضنا، وأنهم في قوتهم انتصروا علينا. الهزائم يا عزيزي الوزير تولد الشعور بالانكسار، والشعور بالانكسار لا دواء له إلا الانتصارات الكبيرة، هكذا لا نسترد أرضنا فحسب، بل نسترد أنفسنا وثقتنا في قوتنا، ويسترد الشعب قوته في الملك"

هكذا يبدو مفهومًا جدًا ما يقوله "محمد بن عبد الله دي مولينا" في إحدى مخطوطاته، يفسر فيها للأجيال التالية لماذا اختار أن يسجل ما رأه، يقول: "إني أكتب ذاكرة، ذاكرة ربما تحتاج لترميم في زمن آخر، ذاكرة لو كان لي أن أطمح، أطمح أن تسري بين الناس كحكاية شعبية، حكاية ترويها الجدات للحفداء، حكاية يرويها الصبية فيما بينهم في ليالي البرد، في ليالي الظلام، في ليالي الإفك، فللتاريخ أهله وكتبه وكتبته، وللذاكرة أهلها وحكاياتها".

حصن التراب محاولة إذن لحماية الحقيقة أو ما نظن أنه كذلك من الاندثار أو الذوبان وسط بحار من الأكاذيب تحيط بنا من كل حدب وصوب، ثم أن الرواية تحاول أن تعيد التفكير فيما إذا كان من تم تهجيرهم

وقتلهم هم موريسكيون فعلًا يقول ميجل ابن خوان دي مولينا: "هوية أجدادي وبخاصة المولودون بعد التنصير لم تنزع عنهم أندلسيتهم. كل ما حدث أن اسم الهوية قد تغير. لم يكونوا عربًا بنقاء، لم يكونوا إسبانًا بنقاء، كانوا أندلسيين، الأندلسية هوية ثالثة، هوية جمعت بين الانتماء للأرض والانتماء للأصول البعيدة، جمعت بين هوية المناخ والتقاليد وهوية الدين. هل الدين أيضًا جزء من الهوية؟ الدين لا في معناه الطقسي لكن في عمقه الثقافي. أفكر في أن الإسبان لم يطردوا العرب يوم طردوهم، لكن طردوا إسبانيين مثلهم، طردوا أنفسهم."

هل طرد الإسبان أنفسهم فعلًا من أرضهم وحلت بهم منذ هذا الحين لعنة الانقسام والشتات وعدم الطمأنينة؟ هذه أسئلة لا تجيب عنها الرواية بشكل حاسم، لكنها تجعلك تعيد التفكير في معنى هوية الإنسان، وهل هي تعود لموطنه أم لدينه، أم لكلاهما معًا، أم لما يظن أنه أرضه ودينه؟ خاصة عندما نعلم أن مخطوطات العائلة قد كتبت على مر السنين بالعربية والإسبانية القدمية والأعجمية. هل هذا انصهار أم تشتت؟ سيظل هذا سؤالًا معلقًا سيطول ميجل حتى وهو يصطحب جثة أبيه في رحلة عجيبة من تطوان بالمغرب حيث هجروا إلى كونيكا حيث أوصى أبوه أن يدفن، على غير رغبته يجد العربة التي تجرها الأحصنة قد وقفت في "حصن التراب" وأبت ألا تتحرك. يترجل ذاهبا إلى أبناء عمومته، يستقبلونه في دفء، ويطلبون منه ألا ينفذ ظاهرة وصية والده، وأن يدفن هنا في حصن التراب لا في كونيكا. يمتثل للأمر لكن يبقى السؤال الصعب، أين سيدفن الأب في مقابر المسلمين أم في مقابر الكاثولكيين؟ يحسم الابن الأمر مثلما حسمه من قبل "ظل هو مسيحيًا وظللت أنا مسلمًا منذ قررت ذلك مع التهجير، ولأن مسيحيته كانت صوفية ولأن إسلامي كان صوفيًا كنا نلتقي في أرض خصبة".

في رحلة شتاتهم، من كونيكا وحتى تطوان، يروى مانويل دي مولينا

في مخطوطته المشاهد الأخيرة لهم في الأندلس، يقول: "في العربة ظللنا أنا وأنت يا ميجيل ننظر وراءنا، نتطلع للتلال والبيوت المنحوتة في الصخر، نودع الشمس في الأفق، وكلما تقدمت العربة للأمام انتزعت قلوبنا من صدورنا، التوت رقابنا أكثر، تذكر يا ميجيل، منذ تلك اللحظة غدونا برقاب ملتوية، منذ تلك اللحظة نسير بعيون تنظر إلى الخلف".

بهذه العلامات المميزة، يمكن أن تعرف جيدًا مَن مِن بيننا الآن مِن حفداء تلك العائلة الموريسكية المعذبة.

الرواية: حصن التراب.
المؤلف: أحمد عبد اللطيف.
الناشر: دار العين–2017.

زاوية أخرى: مؤلف الرواية متخصص في الأدب الإسباني وقام بترجمة نحو عشرين كتابًا من الإسبانية إلى العربية، الأمر الذي يعطيه عمقًا وصدقية واضحًا في تناوله للشأن الأندلسي. روايته "كتاب النحات" فازت بجائزة ساويرس للأدب عام 2015 عن جدارة واستحقاق.

في غرفة العنكبوت.. العالم الخفي لـ «الحبايب"

هذه رواية صادمة وثقيلة الأثر. ليس لأنها –تقريبا– أول رواية مصرية يكون بطلها الرئيسي– وليس أحد الشخصيات الفرعية– مثلي الجنس، وليس لأنها تستلهم وقائع قضية مركب "كوين بوت" الشهيرة التي وقعت في 2001، كواحدة من أكبر القضايا التي أثيرت فيها مسألة "الشذوذ الجنسي"، وليس حتى لأنها تقدم جانبًا واقعيًا من حياة المثليين في مصر وكيف أنهم يعيشون حياة ضاغطة، وعلى حافة الخطر دومًا سواء بصراعهم النفسي الداخلي أو مع الآخر متمثلا في الأهل والحكومة، ومن قبلهم طبعًا من هم مثليين بدورهم؛ وإنما لأن الرواية تكتفي بالتشريح ولا تحاول أن تتبنى موقفًا، تستعرض ولا تنحاز، فلا تحاول أن تبرر أو تجد سببًا وراء ميل أحدهم لأن يتواصل جسديًا مع شخص آخر من نفس نوعه، أو كما جاء على لسان البطل هاني محفوظ في الثلث الأخير من الرواية وقد بدأ ما استعصى عليه فهمه في التفكك قليلًا " وقد ظننت في السابق أن التدليل الزائد هو ما أمتص ماء الرجولة مني، غير أنني توقفت من زمان عن الانشغال بالأسباب، من كثر ما قابلت من حالات متنوعة وتكاد تكون متناقضة في ظروف نشأتها بين الحبابيب"، وهو أمر يجعل القارئ يغرق في بحور من التساؤلات المعقدة والمركبة، وتدفعه لأن يعيد النظر في مسألة تعاطيه مع ذلك المصطلح المثير للقشعريرة دومًا في مجتمعاتنا "مثلي الجنس"، وألا ينظر إلى مريديه باعتبارهم كتلة واحدة تحولت ميولها الجنسية الطبيعية لأسباب تتعلق بالتربية أو النشأة أو حتى تعرضهم لظروف اجتماعية أو اقتصادية طاحنة. إعادة التفكير فيما هو متفق عليه، ربما يكون إذن أحد الأهداف الرئيسية الكبرى لهذه الرواية التي كتبها المترجم والروائي محمد

عبد النبي والصادرة عن دار العين، وقد دخلت القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية في عام 2017.

أكبر تحدٍ كان يواجه المؤلف في هذه الرواية هو أن تتحول إلى صفحات مثيرة وفضائحية بدعوى نقل تفاصيل ذلك العالم السري لـ «الحبابيب»، وهو المصطلح الذي يتبادله المثليون في مجتمعهم المغلق للإشارة إلى المشتركين معهم في ذات الميول الجنسية، لكن "عبد النبي" نجا بالرواية من ذلك المصير بذكاء لأنه يمتلك أدواته السردية بحرفية. صحيح أن الرواية تظل جريئة في وصفها لبعض العلاقات المثلية، وقد يبدو ذلك من الصعب تقبله على بعض نوعيات القراء، إلا أن الرواية تحافظ على خيطها الرفيع منذ البداية وحتى النهاية دون انفلات أو قطع حاد.

تسير الرواية في خطين متوازيين، حيث يحاول هاني أو "هنون" كما يعرف بين أصدقائه، وهو مهندس ديكور ميسور الحال، أن يتجاوز تداعيات حالة "الهيستيريا التحويلية" التي أصابتها خلال وقائع محاكمته بتهمة "ممارسة الفجور" عقب القبض عليه وسط جمع كبير يضم "الحبايب" من مركب "كوين بوت". الهيستريا التحويلية لجأ إليها عقله بعدما استشعر عدم قدرة صاحبة على تحمل الضغوط والصراعات، سواء تلك التي يتعرض إليها في السجن باعتباره "مثلي" أو ما مر به طوال حياته، فكأن أن أصيب بخرس مفاجئ، ولم يعد قادرًا على الكلام، فقط لا يملك سوى الكتابة على الورق.

بعد سجنه لنحو سنتين، يخرج هاني من السجن، وقد خسر عالمه حرفيًا، زوجته فازت بالطلاق بعدما ضربت الفضيحة علاقتهما في مقتل، وهذا ما استتبع أن يفقد أيضًا ابنته الوحيدة. هرب معظم "الحبابيب" الذين فازوا بالبراءة مبكرًا من القضية إلى خارج مصر، ثم أنه لم يعد قادرًا على مواجهة الناس في الشارع بالأساس إلا وقد اختبأ خلف نظارة سوداء. سيبدأ هاني رحلة العلاج بدعم من "البرنس" الذي يتعامل مع "الحبايب" باعتباره العمدة، لكنه لاعتبارات تتعلق بثروته وشبكة علاقاته، وحرصه على

ألا يتورط في علاقات جنسية مباشرة، ظل في مأمن دومًا من أي هجمة للحكومة، فيما ظل عن حب حقيقي وجدعنة ولاد البلد داعمًا، للحبايب المتورطين في القضية، وهاني على وجه الخصوص.

في خلال رحلته لمحاولة العودة إلى "هاني" الحقيقي بعد خروجه من السجن، يتوازى الخط الثاني للرواية، مستعرضًا جانبًا من حياة البطل في طفولته، وكيف نشأ في منزل عجيب، لأب يعمل خياط للسيدات، وأم احترفت التمثيل وصارت اسمًا معروفًا، قبل أن تقرر الاعتزال في سن متوسطة، وتختار العودة إلى "طريق الإيمان".

بطبيعة الحال، تتقاطع رحلة هاني مع رحلة العديد من الحبابيب، بعضهم عابر يلتقيه ذات مرة ثم ينساه، وبعضه يشكل نقطة تحول رئيسة في حياته مثل "عبد العزيز"، الصحفي الصعيدي الأصيل، وخطيب إحدى صديقاته، الذي يجد هاني نفسه منجذبًا تجاهه بشدة، لكن عبد العزيز يقاومه مبتعدًا، حتى ينهار كلاهما عقب وفاة والدة هاني، فيكون ثمن ذلك أن يخسر عبد العزيز خطيبته ويرحل للخارج قبل أن يعود لاحقًا ليحضر جلسات محاكمة هاني، ويلتقيه بعدها محاولًا مساعدته في الخروج من حصار الخرس قائلا له: " لسنا ملكًا لأنفسنا. نستطيع طول حياتنا أن نملأ الدنيا ضجة وتمردًا وسخرية وإلحادًا وجنونًا وصعلكة، لكننا في نهاية الرحلة حتى ولو بعد مائة عام نكون مجرد مادة مخجلة يجب إخفائها سريعا. مجرد شيء كان مفقودًا وأعيد إلى مالكيه الأصليين ليفعلوا به ما يرونه واجبًا وصحيحًا". سيصبح هاني وعبد العزيز من بعد كل هذه الهزات التي تعصفت بهما أصدقاء هذه المرة وليسوا "حبايب" حتى إنهما سيضعان يدهما في يد بعضهما بعضًا؛ ليبدآ رحلة البحث عن رفقيهما "كريم" الذي اختفى فجأة بعدما اكتشف أنه أصيب بالإيدز.

"في غرفة العنكبوت" تدخل – كغالبية الأعمال الأدبية التي تعيش لسنوات– إلى العمق ولا تتوقف عن السطح، وبغض النظر عن بعض

الإطالات السردية أو التأخر النسبي في ظهور بعض الشخصيات مثل كريم إلى بؤرة الأحداث، فإنها تقتحم وبشجاعة تحسب لمؤلفها منطقة شائكة وحساسة، وتنجح في أن تنجو بالرواية من منطقة الإثارة إلى منطقة الأسئلة، وذلك عبر انحيازها إلى الإنسان الفرد في مواجهة نفسه والعالم من حوله، ولعل هذا تجلى في الصراعات الداخلية الكبرى التي تدور داخل نفس كل واحد من "الحبايب"، وانقسامه– للدقة انشطاره– بين أن ما يفعله "فجور" ينهى عنه الله، أو "ميل جنسي" لا يملك فيه يدًا، وقد ظهر ذلك بنعومة ودون مباشرة بل وفي بعض الأحيان، وبه ملمح من سخرية واقعية، كأن يسأل أحدهم واحدًا من "الحبايب" عما إذا كان "مصاحب واحد سني" لأنه ظل حريصًا على صيام الاثنين والخميس، وقراءة القرآن بصوت عذب لفترات طوال؛ وهي في ذلك تنحاز للإنسان بكل ما فيه من تناقضات، حتى في استسلامه– في أحيان كثيرة للغاية– لمصيره الذي يحيط به، وينسج خيوطه حوله دون فكاك منه، تمامًا مثلما تحيط خيوط العنكبوت بفريستها.

الرواية: في غرفة العنكبوت.
المؤلف: محمد عبد النبي.
الناشر: دار العين– 2016.

زاوية أخرى: يترجم محمد عبد النبي بشغف كما يكتب الرواية بشغف، وقد قدم ترجمات لكثير من الكتب المهمة من بينها اختفاء للكاتب الأمريكي، الليبي الأصل، الحائز على جائزة بوليتزر هشام مطر، وفي ظلال الرمان للكاتب البريطاني ذو الأصلي الباكستاني طارق علي، كما أنه يعمل بدأب في ورشة "الحكاية وما هي فيها" على ضخ كرات الأدب في دماء المتطلعين والمحبين.

ضارب الطبل.. دليلك إلى قهر الموت

يعاني أبطال "ضارب الطبل" من كابوس مرعب. جميعهم يعرف اليوم الذي سيموت فيه بدقة.

في زمن متقدم ليس بالبعيد، باتت الدولة تجبر الآباء المكلومين على أن يذهبوا بأبنائهم المولودين للتو إلى مقر (جهاز الصحة)، ليتم تمرير الرضيع على جهاز يشبه الثلاجة الصغير، لدقائق ثم ينتهي الأمر بأن تخرج ورقة مطبوعة عليها تاريخ الوفاة المنتظر، ثم بعد كل هذا على الأب أن يخرج "الحلوان" من جيبه للموظفين العاملين بجهاز الصحة إذ تبين أن رضيعه سيعيش أكثر من عدة سنوات!

في روايته الأحدث الصادرة عن دار الشروق، اختار الروائي "أشرف الخمايسي" المعروف بأنه مثير للأدب والجدل، بأن يخوض مغامرة فلسفية معقدة حول الحقيقة الأكبر في الحياة.. الموت.، هنا الموت كائن حي واضح الملامح يضرب المواعيد المحددة للجميع من أجل لقاء محتوم. لا أحد يفلت من مواعيد "جهاز الصحة"، بل وإذا حدث خلل ما، ومر اليوم المحدد دون وفاة لأسباب ربما تتعلق بأن الجهاز آلة من اختراع البشر يمكن أن تخطئ في مرات نادرة، عليه في اليوم التالي مباشرة أن يسلم نفسه إلى الجهاز التنظيم، لتقوم الحكومة بقتله. القانون / الموت يجب أن يطول الجميع في موعده، لا استثناءات، الدولة لا تريد أحد أن يفلت من قدره المسجل على البطاقة الشخصية.

في الرواية التي تدور أحداثها في بيئة مصرية راسخة، مدينة الأقصر،

وقراها الخلابة المطلة على النيل والمعابد الفرعونية الخالدة، تنقلب حياة الجميع إلى اللون الأسود. لا أحد يتزوج البنات اللاتي سينقصف عمرهن في نصف الحياة. المتزوجة التي تعرف ويعرف الجميع من تاريخ وفاتها المدون على بطاقتها الشخصية أنها ستموت في الأربعين، لا تنجب. من هذه الأم الجبروت التي توافق على أن يتم أطفالها من بعدها؟

الميراث بين الأشقاء لا يتم توزيعه وفقًا للعدل، وإنما وفقا لمواعيد الموت. الشقيق الذي سيموت دون العشرين، ينال الثلث فحسب، وشقيقه الأكبر الذي سيعيش حتى الثمانين ينال الثلثين. الأخير سيتزوج وسيكون له أبناء وحفداء، لكن بماذا سيفعل الأول الذي سيموت بعد عام من الآن بالفدادين والماشية والفلوس السائلة؟

الرعب يتجسد في حكايا الأبطال المكلومين، خاصة في أيامهم الأخيرة، يقول الراوي: " ما أن يحل العام الأخير من أعمار الناس حتى يدب الانكسار في أرواحهم، يمشون في الدنيا كالغرباء، يتصرفون تصرفات المجانين في معظم الأحايين!"، هذا تمامًا ما سيطول "العمراني محمد إمام"، وزوجته "سيدة"، إذ قال "جهاز الصحة" إنهما سيموتان في نفس اليوم، ولما وقع المحظور، وأنجبا طفلتين جميلتين، جاء النتيجة الصادمة تشير بأن الطفلتين ستموتان في نفس اليوم، كان هذا لا يحمل سوى معنى واحد، أن هذه الأسرة ستموت معًا في حادث مفجع، حريق، تسرب غاز، سيل ينزل من أعلى يزيح الجميع في طريقه. هذا أيام كابوسية تجعل المرء يموت كل يوم قبل أن يأتي أجله، وستدفع "العمراني" إلى أن يتحدى إرادة "جهاز الصحة" في اليوم الموعود بطريقة دامية، لم تغير موعد الموت الجماعي المحتوم، لكنها كسرت توقعات الناس بالطريقة التي ستموت بها أسرته في يوم واحد.

ثم أن الأمر لم يخل من سلوك مصري أصيل، عندما يخطئ العامل بوضع ختم الحكومة على تاريخ وفاة أحدهم، فيقرأ أنه سيتوفى في العام 6، بينمًا هو وفقا للجهاز سيموت في العام 8، وعندما يمر يوم موته في العام

الأول دون وفاة، يتحول شيخنا هذا إلى ولي، ويقام له مقام وضريح عقب وفاته؛ لأنه الشيخ الذي انتصر على الموت!

لكن الأكيد أن المقاومة دومًا تولد من رحم الجحيم. المشكلة أن العدو هذه المرة رهيب وآسر وعصي على المواجهة. اعتاد الناس أن يقاوموا محتل، أو حاكم ظالم، أو زمرة فاسدة، أو قتلة يصلون إلى المناصب العليا، مهما تعاظمت قوة الآخر، فإنه في نهاية الأمر بشر، له نقطة ضعف يمكن التسلل منها، لديه وقت تخمل فيه قواه، وتنهار فيه أسواره، لكن كيف بالناس أن يواجهوا ذلك العدو الذي يحاصرهم في الزمان والمكان، كيف يمكن مقاومة الموت، بل والانتصار عليه؟

لا تقدم "ضارب الطبل" طريقة واحدة لذلك بل عدة طرق.

هناك "طه" و "شادية"، كلاهما تزوج الآخر وهو يعلم يقينًا أنه وفقًا للموعد المسجل لدى الحكومة، فإنهما سيموتان بعد عام من الزواج، فماذا فعلا؟ قررا أن يواجهها الموت بالحياة. مارسا كل فنون الحياة خلال هذا العام. من حب وسفر واستمتاع بكل الملذات، لذا كان الموت بالنسبة لهما هو "أجمل شيء في الحياة"!

ثم أن هناك طريقة "حفار القبور"، الذي حينما اقترب موعد أجل والديه، قررا أن يبعداه عن العمران، وأن يطلقاه في الصحراء هاربًا من الموت، هم بطريقة ما لم يسجل ابنهما في "جهاز الصحة"، فلا هما ولا هو يعرفوا موعدا لموته، لكن شخص مثل هذا تجاوز سن البلوغ ولا يعرف أحدًا موعدًا لموته، لا يمكن أن يترك هكذا حرًا دون أن تطوله يد الحكومة، ويد جهاز الصحة. الصحراء هي الحل. يمكن إذن أن تهرب من الموت بأن لا تقف في وجهه، بأن تبحث عن معنى لحياتك، عن مغامرة يمكن أن تعيد بناءك من جديد، حتى ولو كان هذا في قلب صحراء مليئة بالأفاعي الضخمة والأشباح والرمال الموحشة، والظلال الغامضة التي تظهر في الليل لتضرب

الطبول بقوة، حاشدة كل أصوات الحياة في صوت واحد.

هناك اعتناء واضح بطريقة بناء الشخصيات في "ضارب الطبل"، وحرفية لافتة في تشابك العلاقات بين بعضها بعضًا، وذكاء في القدرة على التمييز بين استجلاء كل التفاصيل للشخصيات المحورية، وإضفاء الكثير من الغموض على الشخصيات التي تمثل "الماورائيات"، مثل "ضارب الطبل" الذي لا يتجلى إلا للهاربين من الموت في الصحراء، ومثل حفيدته "خضرة محمد علوان"، العاهرة ذات الثمانين عامًا والشبق اللا منتهي، التي لا يعرف لها أحدًا موعدًا لموتها، بينما هي بالتفرس في الوجوه تعرف وقت الموت المحتوم، وكأنها مرافقة أبدية للموت، وكأنها هي الموت. وباستثناء بعضًا من النمطية طال شخصية الخواجة الأمريكي "إيريك"، إذا ظهر فحلًا، غليظًا، يعكس رمزية لـ «الحياة الأمريكية الفظة"، فإن شخصيات الرواية النابعة من بيئة محلية شديدة الخصوصية جاءت ثرية وموحية.

تطرح "ضارب الطبول" العديد من الأسئلة الصعبة على لسان أبطالها مثل هل اختياراتنا التي نظنها الأفضل هي نفسها مسببات آلامنا وأحزاننا؟ هل تتحول الحياة إلى شيء بلا معنى لمجرد أنها بلا حدود؟ هل يمكن لشيء أن يكون ذا قيمة إن لم يكن محددًا؟ هل الموت هو الذي يعطي للحياة معنى وقيمة؟ أم أنه هو الذي يجتث من الحياة معانيها؟ هل لو عرف الناس لماذا يعيشون لتحسنت حيواتهم؟ أم أن معرفة المعنى من الحياة هو أول ما يفسدها؟ لا تقدم الرواية إجابات شافية على كل هذه الأسئلة. للدقة فإن كل سؤال لديه –وفقًا لاختيارات ومصائر الأبطال– إجابات عدة، وعلى القارئ أن يختار الإجابة التي يراها صحيحة، وكأن الرواية تضع قارئها أمام امتحان يضم اختيار الإجابة من متعدد، دون أن يكون هنا مرجعًا ملزمًا للجميع بالصح والغلط.

هكذا بأسلوب سردي متدفق بلا نتوءات، وبنفس أدبي حار وساخر وذكي، تخوض "ضارب الطبول" لمؤلفها أشرف الخمايسي، مغامرة أدبية

ممتعة ليس فقط من أجل التحريض على أن الاستمتاع بالحياة هو أفضل وسيلة لمجابهة الموت، وإنما للتأكيد على أن مقاومة الموت وكل مرادفاته من يأس وإحباط ووهن وعجز وحيرة وجنون، لا يكون أبدًا بالانعزال والتوحد، وإنما بالبحث عن النفس في نفوس الآخرين، واستعادة الروح في أرواح الآخرين.

الرواية: ضارب الطبل.
المؤلف: أشرف الخمايسي.
الناشر: دار الشروق– 2017.

زاوية أخرى: جمهور أشرف الخمايسي وهم كثيرون يعتبرون "منافي الرب" ليست فقط درة أعماله، وإنما أيضا واحدة من الروايات المهمة في تاريخ السرد الروائي العربي في السنوات العشر الأخيرة. ترشحت الرواية للقائمة القصيرة للبوكر العربية لكنها لم تفز بالجائزة الكبرى. ورغم صخبها فإن الرواية التالية لها في الصدور "انحراف حاد" حققت صدى مهمًا بدورها.

(أهل الحي).. هلموا إلى مواجهة "بطش البرطوشي"

تبدأ هذه المجموعة بـ "بطش البرطوشي" الذي يتجلى في استحواذه على "البيت الكبير" عنوة، وتنتهي بمحاولات إصلاح لأحوال الحي "الزفت" على يد المقاول الشهم القادم من خارج الحي "محفوظ حافظ"، لكنه يخسر معركته في مواجهة "مسكين البرطوشي"، وينتهي الحال بقطعة الأرض التي حاول تجميلها لأن تعود إلى سابق عهدها.. خرابة.

هكذا يمكن قراءة جميع قصص "أهل الحي" لمؤلفها د.يوسف زيدان اعتبارها خيط واحد متصل، وكأنها رواية مفككة إلى "قصص قصيرات"– كما ذُكر على غلاف المجموعة الصادرة عن دار الشروق– حتى إن هناك شخصيات رئيسية تظهر في قصص محددة ثم تعود لتظهر في قصص أخرى، مثل "البرطوشي" و "زغلول شيخ الحارة"، و «فاضل الحلتيني" الرجل البركة الذي حول بيتًا استولى عليه بالظلم إلى مسجد، فصار شيخًا، وله طريقة وأتباع وحراس ونفوذ.

ومثلما يمكن قراءة "أهل الحي" أو تصنيفها أدبيًا على أكثر من مستوى، فإن استقبال قصص المجموعة لقارئها يمكن أن تتباين درجاته ومستوياته. فهي في قراءة مباشرة، تروى جانبًا من خفايا ذلك الحي أو الزقاق الذي يجمع في أركانه صنوف شتى من البشر، فيهم الشرير الخالص، والطيب المسكين، والراضي القانع، والمتمرد المتوتر. كما أنها تسرد قصص صعود بعضًا من هذه النماذج إلى ذروة سلم السطوة والسلطة و "البلطجة"، لكنها على مستوى آخر فإن قصص "أهل الحي" محتشدة برمزيات عدة، يمكن إسقاطها بسهولة على واقع شديد الوطأة، أو ماضي قريب جرت فيه

محاولات لصناعة الأمل، أو زمن بعيد ترسخت فيه أصول الشر حتى بات من الصعب اقتلاعها.

القصة المفتتح "بطش البرطوشي"، بما فيها من تناغم جاذب في عنوانها، تلخص كيف توحش نفوذ مسكين البرطوشي، حفيد صانع البراطيش، حتى بات من المستحيل احتواء طمعه وجوعه للاستحواذ على الحي بأكمله بعد تمام سيطرته اعتمادًا على شلته من الفتوات والقباضيات في فرض كلمته بالقوة، بعدما تسلل البرطوشي ذات مساء ليفوز بشقة على سطوح البيت الكبير، وبعد أن استجلب عماليق لحمايته، وإعلان أنه صاحب قوة باطشة، بدأ في تنفيذ مخططه كما يلي: "وقد بدأ تصاعد الأحداث في منتصف الصيف الماضي، وقت الظهيرة، ساعة وقف "مسكين" أمام بوابة البيت الكبير يحوطه عماليقه الثلاثة، وصاح ليسمع العابرين والساكنين: الوضع ده ميصحش! فجاوبته من شرفتها المنخفضة الحاجة محاسن الساكنة بشقة بالطابق الأرضي للبيت الكبير وجرى بينهما هذا الحوار:

– مالك يا سي مسكين زعلان ليه.

– حالة العمارة زفت ولازم نتحرك.

– والله عندك حق يا خويا، ربنا يعدلها من عنده.

– ربنا قال: اسع يا عبد وأنا أسعى معاك.

– يعني نعمل ايه؟

– نعمل اتحاد ملاك يا ست محاسن، ويبقى له رئيس.

– بس يا سي مسكين العمارة كلها إيجار وفيها شقق مفروشة كتير، وصاحبها الأساسي الله يرحمه.

– وماله، برضه لازم نختار رئيس اتحاد ملاك عشان يراعي العمارة بدل البهدلة دي...

– خلاص ياسي مسكين احنا اخترناك انت رئيس اتحاد..

– على خيرة الله..

أطلقت الحاجة محاسن زغرودة رنانة معلنة للجميع عن ابتداء رئاسة مسكين للاتحاد، فردت عيلها من زوايا الزقاق الزغاريد التي لم تعرف المزغردات بها بسبب الزغردة. وفي المساء، سرى همس بين شباب الديلفيري، مفاده أن الحوار الذي جرى ظهرًا بين محاسن ومسكين كان متفقًا عليه من قبل".

ستجرى بعض محاولات المقاومة من أهل الحي، وذلك بعدما فرض البرطوشي عليهم ضرائب تصاعديه تقصم الوسط، سيبزغ نجم "حماده" كاسم مقاوم للبطش البرطوشي لفترة، لكنه ولأنه وحيد، لن يخسر فقط معركته، وإنما سيختفي ذات يوم بعدما ذهب للدراسة في جامعته، وحينما يسأل أهل الحي "البرطوشي" عن مصير حماده، يقهقه البرطوشي قائلا :"طب ما تسألوا عليه الدبان الأزرق هههههه".

بعد ضمان اختفاء المقاومة، يصعد البرطوشي من مخططه، "عند مدخل الزقاق وقفت مشدوها، ولم أذهب لأي مكان، فقد كان الريس "مسكين" واقفًا في قلب الزقاق، وحوله العماليق، وكان يزعق قائلًا ليسمع العابرين والساكنين: الوضع ده مايصحش!

جاوبته من شرفتها المنخفضة الحاجة محاسن وجرى بينهما الحوار المسرحي الشبيه بسابقه:

– مالك يا سي مسكين زعلان ليه

– حالة الزقاق بقت زفت، ولازم نتحرك

– والله عندك حق يا خويا

– ..

– .. "

قصة صعود البرطوشي، لا تختلف كثيرًا عن قصة صناعة نفوذ لـ «فاضل الحلتيتي"، الذي دخل الحي ذات يوم، ثم قدم نفسه باعتباره ابن شقيق "جدو محمود" ، ذلك الرجل العجوز الثمانيني الذي يسكن في إحدى الشقق بالزقاق. فاضل ظهر في شقة الجد، واطمئن له أهل الحي بل وثمنوا فيه "جدعنته" كونه يرافق الجد العجوز في أيامه الأخيرة. عقب وفاة الجد، رفض "فاضل" أن يترك الشقة، وتمسك بالبقاء فيها باعتباره وارثًا. ثم مارس قدرًا لا بأس به من البلطجة على صاحب العمارة، فلما ذهبا مختصمين للمحكمة، أمرت الأخيرة بأن يبقى الوضع على ما هو عليه، فلم يكتف فاضل بالبقاء وحيدًا في الشقة، بل استجلب غرباء ليسكنوا معه، وبعد أن هدأت الأمور واستقرت، بدأ بدوره في تنفيذ مخططه "قام فاضل الحلتيتي بفتح شباك الغرفة المطل على الحارة، بابا! وفرش أرضيتها بالموكيت الأخضر، لتحويلها إلى مصلى مفتوح.. مالك البيت اعترض فلم يجد مستمعًا لاعتراضه، وذهب إلى قسم الشرطة لتحرير محضر فقيل له هناك: اتق الله"

بعد أن صار صاحب مسجد، صار الأمر يسيرًا على "الحلتيتي". جاءه أهل الحي ليستشيروه في أمور دنياهم ودينهم، وفك الأعمال السفلية والسحر، فلما تمكن، فرض عليهم بالقوة أن يؤدوا إليه الزكاة، ولما اعترض أحدهم على ذلك قائلًا بأن الضرائب التي يدفعونها للدولة هي مسمى آخر للزكاة، اتهم بالكفر وكاد يلحق بمصير حماده.

يقسم يوسف زيدان أهل الحارة إلى أربعة أجيال، جيل بلا اسم ويضم من تخطوا السبعين وهم من يسيطرون على مجريات الأمور، و «الجيل الضايع" وهم أولئك ما بين الأربعين والسبعين، ثم "جيل الدليفري" وتتراوح أعمارهم بين الخامسة عشر وما تحت الأربعين وهم الذين يطلبون أكلهم "دليفري" ودائمو السخط والغضب، وأخيرًا جيل الحناكيش، وهم من صغرت أعمارهم عن الخامسة عشر.

وتحفل قصص المجموعة بصراعات متصلة بين هذه الأجيال، وهو الصراع الذي يصل ذروته في قصة "خلود شيخ البلد"، إذ يموت شيخ البلد أخيرًا بعدما كان وصيًا على الحي لثلاثين سنة، ويبدأ الصراع حول خلافته بين الأجيال ويكاد الأمر يتطور إلى قتال دموي، وهو ما يستدعى مأمور الحي لأن يتدخل فارضًا سيطرته وقراره على الجميع "شيخ الحارة ليس بالانتخاب، أنا الذي أختاره من بين المخبرين، وقد اخترت زغلول شيخًا للحارة بدلًا من أبيه الذي لم يمت، وإنما ذهب ليرتاح في دار الاستشفاء"!

وهكذا تنفتح خزائن الاسقاطات والرمزية في معظم قصص "أهل الهوى"، خاصة مع تضافر (الثلاثة الكبار)– كما يسميهم المؤلف، قاصدًا بهم "البرطوشي" و "شيخ الحارة" و "الحلتيتي" لمواجهة أي مواجهة لتغيير الأوضاع داخل الحي، سواء كانت هذه المحاولات من الداخل، حيث ذهب حماده إلى مكان لا يعرفه الذباب الأزرق، أو كانت من الخارج على يد المقاول الشريف "حافظ محفوظ" الذي فور أن نجح في تسوية أرض الخرابة استعدادًا للبناء، وقضى على الفئران المنتشرة في أركان الحي، حتى وجد نفسه في مواجهة خاسرة مع الثلاثة الكبار، فلم يجد مفرًا من أن يبتعد عن المكان.

تخلو "أهل الحي" من شخصيات رئيسية مقاومة، وعلى عكس "الثلاثة الكبار" الذين يظهرون بقوة أو تسيطر ظلالهم على الأحداث في القصص؛ فإن الشخصيات التي تقاومهم في جلها، هي شخصيات فرعية، سرعان ما

تختفي بعد ظهور ومقاومة مؤقتة، قد يجنح هذا بـ «أهل الحي" إلى مساحة واقعية سوداء، لكن ثمة أمل يتناثر في سطورها بأن يخرج أهل الحي من كابوسهم الثلاثي هذا ذات صباح، أو كما قال واحدًا من العابرين في شوارع الحي "غدا.. قد يكون الحال كما كان اليوم، وقد لا يكون".

الرواية: القصص: أهل الحي.
المؤلف: يوسف زيدان.
الناشر: دار الشروق– 2017.

زاوية أخرى: يكتب يوسف زيدان بغزارة لافتة، حتى إنه بعد صدور مجموعته هذه بنحو أربعة أشهر فقط صدرت مجموعة قصصية أخرى، كما أن لديه مجهود بحثي خاصة فيما يتعلق بإعادة قراءة التاريخ يستحق النقاش. تبقى عزازيل هي الرواية اللعنة التي لم يستطع أن يتخطى شهرتها وصخبها. وهو أمر يدفع بكل تأكيد إلى قراءتها.

المقاعد الخلفية.. لحظات الحب "المموهة"

تعبر هذه الرواية بذكاء ووعي عن قطاع عرضي كبير من "جيل الألفية". ذلك الجيل الذي ولد في النصف الأخير من ثمانينيات القرن الماضي، ونما وعيه وإدراكه مع ثورة معرفية كبرى وانقلاب ضخم في طرق التواصل بين البشر وبعضهم بعضًا، مما جعل "القرب الإنساني" متاحًا وسهل نسبيًا، لكن ذلك على عكس المأمول والمتخيل، ضاعف من مخاوف الوحدة المفاجئة، وأدخل المرء في حسابات معقدة عن المستقبل الغامض مع ذلك الشخص الذي استقر له القلب.

في "المقاعد الخلفية"–الدار المصرية اللبنانية–، وهي الرواية الثانية لمؤلفتها نهلة كرم، نرى العالم من وجهة نظر نسائية لا تخل من نزق طفولي، وتمرد مراهقين، وجنون العاشقين، كل هذا مغلف بتفاصيل هذا الزمن حتى إنه لو جرى حصر أبطال هذا العمل، لتمت إضافة "فيسبوك" لهم بطلًا رئيسيًا. تتقاطع هنا عدة قصص أبطالها كلهن نساء مصريات في سنوات عشريناتهم التي تشتعل فيها المشاعر والرغبات، ويبدو فيها الحب خير ملاذ للإحباطات الكبرى على المستوى الشخصي أو حتى على مستوى الوطن، ومن بين قصص آمالهن وشقائهن تبرز قصة سارة.

سارة، في منتصف العشرينات من عمرها، تعمل معدة للأفلام الوثائقية في شركة متخصصة، دخلت في أكثر من علاقة حب، لكنها دومًا كانت حريصة على أن تهرب في اللحظة السابقة للاعتراف المتبادل بالحب، تلك اللحظة التي يجب أن يتبعها زواج، الذي تراه كما كتبت هي نفسها على فيسبوك ذات مرة " الزواج ليس سوى غرفة يظل يقنعك الآخرون بمدى

أهمية دخولها حتى تدخلها بنفسك وتكتشف كم هي فارغة".

سارة لأسباب عدة تتكشف تدريجيًا وبنعومة لقارئ "المقاعد الخلفية" لا تعاني كما تحدث هي نفسها في حوار خشن، من **gmophopia** الخوف من الزواج أو الارتباط، أو من **anuptaphopia** الخوف من البقاء وحيدًا دون علاقة، وإنما تحمل الشعورين تقريبا! هي تخشي "جحيم الزواج" وما تعرفه يقينًا بأنه يقتل الحب والشغف، وتشعر بالرعب كلما تصورت أنها يمكن أن تظل للأبد وحيدة بلا رفيق أو سند؛ لذا اخترت– عمدًا أم كانت مضطرة لذلك؟– أن تبقى في مساحة "البين بين". تلك المساحة الرمادية التي تكون فيها المشاعر دافئة دون أن تصل إلى مرحلة السخونة فيجد المرء مدفوعًا للتعمق فيها، أو باردة، فيجد المرء نفسه يبتعد دون إرادة منه.

ظلت هكذا، مسكونة بحب من زمن المراهقة جمعها مع "مستر علي" مدرس الثانوي الذي كاد يفترس روحها بعدما عبث قليلًا بجسدها في "المقاعد الخلفية" في أتوبيسات النقل العام المكيفة "**CTA**"، وظل يمثل لها رمزًا للحب المستحيل كما ينبغي أن يكون، ثم تحول إلى واحد من الكراكيب البشرية الكثيرة التي تحتفظ بها في روحها، وهي تظن بأن ذلك يجعل أكثر قدرة على تحمل الحياة، دون أن تدرك أن الاحتفاظ بالكراكيب ربما يفسد الأرواح، وهذا ما تكتشفه عندما تلتقى "رامي".

رامي أستاذ التاريخ بالجامعة، يفاجئها برأيه في أول لقاء " هناك أنواع متعددة من الكراكيب.. بعض الأشخاص لا يكتفون بالاحتفاظ بكراكيب في منزلهم، بل يحتفظون كذلك بعلاقات قديمة بائسة داخل رف في قلبهم، مجرد شعور كاذب بالأمان بأننا لم نفقد أي شيء". فتهتز قناعات سارة، ثم تجد نفسها مندفعة وبقوة في التواصل معه. تبرع المؤلفة هنا في التعبير عن الصراع النفسي الداخلي الذي يعصف بسارة وهي تقاوم كل القواعد التي وضعتها لنفسه حتى تظل في حرم "الحب الآمن"، حتى إنها في تواصلها

اليومي والشغوف مع رامي عبر فيسبوك تضع لنفسها دستورًا خاصًا حتى يظل رامي مجرد "شخص عابر" تحتفظ به في إطار ما يسمى بـ «الصداقة"، من بين هذه القواعد (يجب أن يبدأ هو الكلام، لا أحاديث في أمور خاصة، لا ينبغي أن يشغل العابرون الليل كله ويشاركوننا الصباح، ارحلي قبل أن يقول إنه يود الرحيل). طبعًا تنهار كل هذه القواعد دفعة واحدة وتجد نفسها متورطة أكثر فأكثر حتى يصل الأمر إلى ذروته وقد أعلنت خطبتها على رامي وسط دهشة صديقاتها اللائي يعرفونها جيدًا، قبل أن تعقد هي اتفاقها الخاص مع رامي بعد كتب الكتاب. سيجربان حياة المتزوجين لستة أشهر، وعلى من يشعر بالملل أو سوء الاختيار أن يعلن ذلك بصراحة للطرف الثاني. يبدو الاتفاق في ظاهره مثاليًا، لكنه يكشف تدريجيًا سواءته، والأزمة الكبرى أنه يعري سر سارة الأكبر الذي يواجه به رامي في لحظة انفعال كبرى " أنت تتطلعين إلى المتعة الدائمة طوال الوقت أن يكون كل شيء مثاليًا، لا بوصة واحدة زائدة، لا نقطة شغف ناقصة، من المستحيل أن يظل الشغف بيننا قائما طوال الوقت، الحياة لا تسير على وتيرة واحدة".

أحبت سارة إذن "حب المقاعد الخلفية" واللحظات المسروقة، وقبلات مداخل عمارات الزمالك وقاعات السينما المظلمة الخاطفة، لأنها أكثر إثارة وشغفًا ولا تخلو رغم ذلك من "الأمان" الذي يهتز فور ظهور مؤسسة الزواج، ولأن ذلك الحب هو ذروة "الرغبة المعلقة" التي "كانت وستظل السعادة، التي لا تنتهي؛ لأنها لا تقع، "السعادة غير المحسوسة". وهو ما تجلى في ذلك الحوار القصير الذي دار بينها وبين رامي عقب إعلان عقد قرانهما ((لم نتزوج طبعا/ ماذا أعني بالنسبة لك/ عشيقتي/ تنهدت "أحب هذه الكلمة كثيرًا")). وفي حبها هذا لم تعكس سارة حالة شخصية نادرة تأثرت بطبيعة العلاقة الباردة والتقليدية بين والديها، أو بحب مراهقين يحدث عادة بين الطالبات المراهقات وبعض المدرسين، وإنما عبرت عن "مخاوف" نسبة لا يستهان بها من هذا الجيل، ولا يقتصر الأمر فقط بطبيعة الحال على النساء، وإنما يطول أيضًا الرجال، لكن العديد من المخاوف التي

تناثرت على صفحات الرواية بدا أنها "نسائية بحتة".

ما يلفت في الرواية هو العديد من الحوارات الداخلية التي كلما بدا وأن البطلة تكاد فيها تصل إلى حقيقة أزمتها، سرعان ما هربت منها، وكان لافتًا أن هذه "المونولوجات" رغم جرأتها وقسوتها، إلا أنها كانت مغلفة بحس ساخر خفف من خشونة المواجهة النفسية. فها هي تقول (هل أحبه "رامي" لأنه بعيد مثلما أحببت مستر علي يومًا لأنه متزوج ولديه أطفال وليس لي، هل أحبه لأنه يبدو أنه لجميع النساء، وليس لي فقط، أم لأنني رأيته بملابس الخروج في المنزل.. يا للمصيبة!)، ثم عندما تتأزم علاقتها معه تعلن رأيها في الزواج الذي لم تجربه بعد بصراحة (زفت، لا تظن أني أمزج أو أبعد العين عني، فهو فعلا زفت، وأكثر ما هو زفت به أن تعرف أنه كذلك قبل أن تقدم عليه ومع ذلك تقدم عليه لأنك حمار!).

تتنوع بطلات "المقاعد الخلفية"، وكلهن على غرار البطلة الرئيسية، يتطلعن إلى أمان مفتقد، ووسط هؤلاء تبرز شخصية "منة" صديقتها التي تبرع في إفساد علاقاتها مع الرجال حتى وهي تحبهن، لأنها تخرج دومًا كل مخاوفها من البقاء وحيدة مثل أمها عقب زواج أبيها، أو من تحمل صعوبات الحياة، وتفعل ذلك بصورة منفرة، تجعلها تسقط في فخ الوحدة الذي تهرب منه دومًا. لم تتعمق الرواية كثيرًا في عالم صناعة الأفلام الوثائقية وفعلت ذلك بحذر حتى لا يتقاطع مع الخط الرئيسي للأحداث، ولم يشكل تداخل وقائع الرواية مع نهايات زمن حكم الإخوان في مصر إضافة أو بعدًا قويًا للشخصيات، وبدا أنها تفصيلة ثقيلة على الرواية بعض الشيء.

"المقاعد الخلفية" قد تبدو في صفحاتها الأولى رواية رومانسية، عن الباحثات عن "الحب الرمادي"، إلا أن تمكن مؤلفتها وسيطرتها على فكرتها بقوة وقدرتها على بناء عالم روائي أخاذ لا يخلو من خيال متدفق رغم واقعية أبطاله، ينقل الرواية إلى مساحات عميقة من الصراع الداخلي داخل أنفس عديدة تعيش بينا (بل وربما تكون تعيش فينا نحن بالأساس) وصولًا

إلى النهاية التي تعطي ملمحًا، بأنه إذا كانت الإثارة والشغف يتجليان في "المقاعد الخلفية"، فإن الحب لا يسكن– بالضرورة– هناك.

الرواية: المقاعد الخلفية.
المؤلف: نهلة كرم.
الناشر: المصرية اللبنانية– 2018.

زاوية أخرى: هذه هي الرواية الثانية للمؤلفة. روايتها الأولى (على فراش فرويد) دخلت القائمة القصيرة لجائزة ساويرس، كما أنها لها مجموعتان قصصيتان (أن تكون معلقًا في الهواء) و(الموت يريد أن أقبل اعتذاره)، والكتب الثلاثة الأخرى تستحق القراءة باهتمام؛ لأنها بجانب أنها تكشف عن موهبة أدبية حقيقية، فإنها تعكس أيضًا ملمحًا من هواجس الجيل المولود في نهايات الثمانينيات.

بنات حواء الثلاث.. المجد للمشوشين

تبدأ هذا الرواية بالبحث عن "الرب" وتنتهي، وبطلتها تقاوم خوفها بالبحث عن حبها المفقود. وكأن الطريقين، إلى الرب والحب، متشابكان حتى وإن بدى أحيانًا أنهما يتباعدان.

منذ انفجار شهرتها عالميًا عقب روايتها الأشهر "قواعد العشق الأربعون"، تخطت الكاتبة التركية "إليف شافاق"، حدود اللغة التي تكتب بها، إذ ترجمت أعمالها لأكثر من عشرين لغة من بينها العربية، وصارت رواياتها المترجمة واحدة بعد الأخرى تجد لها مكانًا لدى باعة الكتب الشعبية على الأرصفة، ومن قبلهم وجدت مكانها لدى "المطبعجية المزورين" الذين يمتلكون حاسة فائقة تمكنهم من معرفة أن هذا الكتاب سيحقق جماهيرية ويستحق التزوير، والتربح.

مع صدور الطبعة العربية لروايتها الأخيرة "بنات حواء الثلاث" عن دار الآداب، متضمنة نسخة مصرية منخفضة التكاليف عن مكتبة تنمية الرائدة في هذا النوع من الشراكات مع دور النشر العربية، كانت الرواية الأكثر طلبًا في المكتبات أو على المنتديات والمواقع التي تقوم بنشر نسخ pdf من الروايات المحببة (في قتل مباشر لحقوق المؤلف والناشر)، ومحل نقاش بين المهتمين بأدب إليف شافاق الذي يقدم– عادة– خلطة جاذبة واستثنائية من محاولات الإنسان لاكتشاف روحه، ومقاومة مخاوفه، والوقوف على طريق متزن بين أطنان من جبال الشك والقلق والحيرة، وهو أمر يستوجب عادة التقليب في التاريخ والفلسفة والصوفية والأديان، والإنسان من قبل هذا وبعده.

يبدو عنوان "بنات حواء الثلاث" مخادعًا للقارئ المتعجل الذي يظن بأنه سيتابع تقاطعات قصص لثلاث سيدات إحداهن إيرانية لا دينية، وأخرى مصرية مؤمنة، وثالثة تركية على طريق الشك بين الدين واللادين؛ لأن الرواية في جلها تقوم حول "بيري" الفتاة التركية التي تجد نفسها في جامعة أوكسفورد مدفوعة دفعًا لأن تلتحق بفصل تعليمي غامض يقوم بتدريسه أستاذ غريب الأطوار حول معنى واحد فقط يثير القشعريرة "الرب". صحيح أن بيري تتورط في علاقتها مع منى المؤمنة وشيري اللادينية، فنعرف نذرًا من حياتهما، لكن "بيري" تظل هي محرك الأحداث منذ بدء الرواية وحتى نهايتها، حتى يخال للقارئ أحيانًا أن "شيري" و "منى" غير موجودتين بالأساس وإن كلاهما انعكاس للصراع الذي يدور دومًا في نفس "بيري" ويجعلها تظفر بامتياز بلقب "المشوشة".

عبر رحلة بيري من "التشويش" إلى "الحب"، تضع إليف شافاق في "بنات حواء الثلاث"، المجتمع التركي المعاصر تحت مجهر، يقوم بدوره بتحليل عناصر هذا المجتمع إلى شرائح وطبقات تتضح ملامحه تدريجيًا.

سلمى أم "شيري" على سبيل المثال، تذهب إلى غير رجعة في طريقها إلى الإسلام الشعائري، ونراها مريدة للشيخ "أوزمباز أفندي" ومن ثم "تستخدم صابون زيت الزيتون بدلًا من الشامبو، والمسواك بدلًا من معجون الأسنان، والزبدة بدلًا من الشمع" خوفًا من أن تضم هذه المنتجات أي مشتقات من شحوم الخنزير كما حذرهم "أوزمباز أفندي" في دروسه. وهو سلوك يدرك القارئ المصري أنه ليس قصرًا على أبناء هذا التيار في تركيا وحدهم، وأن بمصر المئات من "أوزمباز أفندي".

وعندما تدعى "شيري" ذات يوم لحضور حفل عشاء مع نخبة المجتمع في إسطنبول، وهو العشاء الذي سيكون سببًا لاحقًا في أن تتداعى الذكريات والأحداث، فإن "شافاق" تعمد إلى عدم وضع أسماء للمشاركين في الحفل، فهذا "صحفي" وهذه "صديقة الصحفي" وهذا "رجل أعمال إسلامي"

وهذا "مدير المصرف" وهذه "مديرة العلاقات العامة" وهذه "زوجة رجل الأعمال"، وكأنها تستعرض طبقات هذا المجتمع المخملي التركي بشكل مجرد، وتكشف كيف أنه منفصل روحيًا عن المدينة / الوطن التي يعيشون فيها، وكيف أن جل اهتماماتهم مرتبطة بما يجب أن يظهروا عليه، وليس بما يجب أن يكونوا عليه.

على هذا النحو، تبنى "شافاق" عالم "بيري". فهي موعودة دومًا بالشخصيات المستقطبة المتنافرة. الأب يكاد يكون ملحدًا، والأم إسلامية متشددة، والأخوات أحدهما في صف أبيه والآخر مع فريق أمه، و «بيري" في المنتصف، هي "تركية معاصرة"، تصوم بضعة أيام في رمضان، وتصلي أحيانًا على فترات متقطعة، تقاطع لحم الخنزير، لكنها تشرب الكحوليات بإفراط، هي لا تنكر وجود إله، لكنها أيضا لا تستطيع أن تقاوم الشك بداخلها.

هكذا تبدو كل شخصيات "بنات حواء الثلاث" شديدة التطرف "وربما النمطية" عن قصد، باستثناء شخصيتين فقط، "شيري" بطلتنا التركية المعذبة، و "آذور" الأستاذ –الأمريكي الأصل– الذي يعطي منهجًا دراسيًا فريدًا عن "الرب". تقول بيري "يفضل المؤمنون الأجوبة عن الأسئلة، والوضوح على الشك. أما الملحدون فينطبق نفس الشيء عليهم تقريبًا. إلا أن المثير للضحك هو أننا إذا ما وصلنا إلى موضوع الرب، الذي لا نعرف شيئًا عنه تقريبا، فإن أعدادًا قليلة جدًا منا هي التي تقوم عادة: "لا أدري".

أما "آذور" وبعدما يتكشف بعضًا من غموضه الآسر في نهاية الرواية، ويدرك أنه مصاب بلعنة ما، تجعله ينقل الضرر إلى كل فتاة أحبها أو أحبتها، نعرف أنه اختار "الرب" محلًا للدراسة والتفكير؛ لأنه اصطدم في حياتها بالكثير من الأشياء التي لم يجد لها تفسيرًا، فقرر أن "يمارس تدريس ما هو غير قابل للتفسير: موضوع الرب".

كفتاة وحيدة، مشوشة، تفتقد الشعور بالاستقرار الداخلي، ومعذبة دومًا بين الأطراف المتصارعة (الأب/ الأم– الصديقات منى/ شيري)، كان منطقيًا للغاية أن تجد "بيري" نفسها متورطة في حب أستاذها "آذور". هو ليس ملحدًا أو مؤمنًا. ليس منحازًا لأفكار يمينية متشددة أو أفكارًا متخلية على الإطلاق عن القواعد والضوابط. هو في المنتصف تمامًا مثلها، مع فارق وحيد أنه ليس مشوشًا مثلها. هو يفعل ذلك عن وعي ويقين وإرادة، فهل يمكن أن ينقل لها جانبًا مما لديه؟

المشكلة أن الأستاذ في "موضوع الرب" أدرك ما تمر به "بيري"، ثم قرر الابتعاد متأخرًا جدًا، فكان أن أقدمت "بيري" على الفعل "المتطرف" الوحيد في حياتها، هو نفس الفعل الذي جعلها تتوقف عن استكمال دراسته في أوكسفورد، وحرم أستاذها "آذور" من الاستمرار في تدريس منهجه عن الرب إلى الأبد.

لاحقًا وبعد أكثر من ستة عشر عامًا من لقائهما الأول، حيث رأت "بيري" "آذور" يتحدث بثقة عن أن "الشك نعمة علينا أن نحتفى بها لا أن نسحقها"، ستقول "بيري" لأستاذها ما كان يجب أن تقوله له منذ زمن: "ثمة شيء في الحب يشبه الإيمان. نوع من الثقة العمياء... الشعور بالنشوة وطعم السعادة، سحر الارتباط بمخلوق خارج نفوسنا المحدودة والمألوفة، لكن إذا جرفنا الحب– أو الإيمان– فإنه يتحول إلى عقيدة، إلى تعلق، وتتحول العذوبة إلى حموضة، ونعاني بين أيدي الآلهة التي خلقناها بأنفسنا"

هل يعني هذا أن نشوه الوصول (إلى الحب / إلى الله)، تخلق عادة معاناة، وأن الأفضل لنا أن يبقى (الحب/ الرب) غير قابل للتفسير؟ هذا سؤال لا تجيب عنه بيري أو آذور في رحلة ممتعة حقا استغرقت نحو ستمائة صفحة في الرواية، التي تستحق القراءة والانغماس في عالمها الثري بكل تفاصيله عن أولئك المشوشين الذين لا يملكون اليقين أبدًا، وإنما فقط لديهم شوقا إلى الحب، وعاطفة تجاه معاناة بني البشر، وشغفًا تجاه المعرفة،

ربما لأن الأسئلة– ستبقى غالبا– أهم من الحصول على الإجابات.

الرواية: بنات حواء الثلاثة.
المؤلف: إليف شافاق.
الناشر: دار الآداب 2018.

زاوية أخرى: إليف شافاق للقارئ المعاصر هي اسم غني عن التعريف بطبيعة الحال. ما جرى مع روايتها الأشهر "قواعد العشق الأربعون" التي ترجمت لأكثر من ثلاثين لغة، وباعت ملايين النسخ، أمر جعلها واحدة من أشهر روائيات القرن. من المهم الاطلاع على كتاب "حليب أسود" الذي يتحدث عن مخاوفها كامرأة وكأم، وهذا أمر يجعل الكتاب مفيدًا للقارئات والقراء على حد سواء.

بيانو فاطمة.. العزف على أوتار الروح

بتفرد معتاد وهدوء ممزوج بثقة "المجددين" ، يقدم الكاتب الكبير د.محمد المخزنجي في كتابه العصي على التصنيف "بيانو فاطمة والبحث عن حيوان رمزي جديد للبلاد" (دار الشروق–2018)، نصين استثنائيين، يبدو أنهما من الوهلة الأولى متباعدين في المحتوى والفن الأدبي اللذين ينتميان إليه، بينما تعطي قراءتهما معًا، دفعة شعورية متدفقة، وإحساسًا مشتركًا، وأسئلة حتى وإن اختلفت؛ فإن ما وراءها متشابك وبقوة.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يقدم المخزنجي ما وصفه هو نفسه بـ «التخييل الذاتي"، والذي يكاد يكون فيه المؤلف حاضرًا بشحمه ولحمه في النص، الذي تقرأ فيه قبسًا من سيرته، وتستكشف فيه قطاعًا استعراضيًا من البشر والأحداث التي مر بها، وقد فعلها من قبل في كتاب بديع– عصي على التصنيف بدوره– هو لحظات جزيرة الحوت، وفيه يتلو شهادته الإنسانية والعلمية على واحدة من كبرى كوارث العالم الحديث التي كان شاهدًا عليها، ونقصد هنا واقعة انفجار مفاعل تشرنوبل النووي المروعة في ثمانينيات القرن الماضي.

في (بيانو فاطمة)، ينحاز المخزنجي إلى فن أدبي كاد ينقرض عربيًا رغم أنه الأكثر ملائمة لإيقاع الزمن، "النوفيلا"، وهي رواية قصيرة لم تزد صفحاتها هنا عن سبع وثلاثين صفحة فقط، لكنها وعلى قلة عدد كلماتها، فإنها محتشدة بنماذج بشرية لافتة، وتصاعد درامي أخاذ، وتشويق لا ترويه كلمات النهاية.

لدينا البطل الذي نعرف أنه قضى صفوة سنوات شبابه دارسًا الطب النفسي في أوكرانيا، وهناك وقع في هوى فاطمة، زميلة دراسة لبنانية وجهها بـ «لون الحليب بالقرفة"، ويبدو أنها بدورها تبادل الطبيب المصري ذات المشاعر لكنها كعادة أهل الشام عملية وحاسمة، ومثلما امتلك هو الجرأة ليطلب الزواج منها في لحظة فوران للمشاعر، امتلكت هي الرزانة والثبات الكافي لتخبره بوجهة نظرها في هذه المسألة الوجودية "أولا، أنا لبنانية بنت جنوب "بتعطيش الجيم أيضا" ولا يمكن أعيش في غير الجنوب. مو قضية وطنية بس، لا لأن الجنوب عندي أجمل أرض وأطيب الناس في الدني. ثانيا أنا شيعية وأنت سني، وهادا ما بيهمني، لكن باعرف إن هادي مشكلة عنكم. ثالثا، إنت معتر، يعني فقير وأنا فقيرة وأنا تعبت من الفقر والتعتير ومقررة أتجوز واحد غني، غني كتير، يعمل لبي بيت كبير جميل على الجبل، وعيادة، ونقضي الإجازات بباريس".

لا مستقبل إذن مع فاطمة، لكن من قال أن هذا يعني قطع فرصة الاستمتاع بما تبقى من لحظات؟

تذهب فاطمة برفقة الطبيب النفسي المصري الذي يستعد للعودة إلى بلاده بعد انتهاء منحة الدراسة، في رحلة فريدة إلى قلب غابات أوكرانيا برفقة سائق روسي أحمر الملامح، بحثًا عن شجر ضخم يمكن تقطيعه ليتحول لاحقًا إلى صندوق كبير قادر على احتواء بيانو أسود أنيق اشترته فاطمة لنفسها، قبل أن تنقل ملكيته لطبيبنا النفسي الذي قرر اقتناءه من أجل شقيقه عازف البيانو الذي ينتظره في المنصورة. قبل الرحيل تعزف فاطمة على البيانو لحنها المفضل، أغنية "يا أنا أنا" لفيروز، وكأنها رسالتها الأخيرة لحبيب وقف بينها وبينه الجغرافيا والدين و "التعتير". فتصله الرسالة ويظل مسكونًا بعزفها إلى يوم الدين.

لكن القصة لم تنته هنا.

بعد عودته لمصر بسنوات، وبعدما انتقل "بيانو فاطمة" في رحلة عجيبة من أوكرانيا للإسكندرية للمنصورة ليتحول إلى "معلم" من معالم الشارع، قبل أن تذهب ملكيته إلى مشتر مجهول، يقرأ الطبيب النفسي خبرًا في الصحف عن "بيانو" عجيب موجود في غرفة الموسيقا بإحدى مدارس الراهبات في بنها، يطلق من تلقاء نفسه دون أن يجلس عليه عازف "نغمة مستمرة تشبه هدير طاحونة دوارة.. تتحول إلى ضجيج مزعج"، ويتبع هذه النغمة حدوث هزة زلزالية ارتدادية في المكان، ومع تكرار تزامن النغمة والهزة الأرضية الارتدادية، اكتسب البيانو سمعة ما ورائية، وبدا للبعض ومنهم الطالبات والمدرسين بأنه مسحور، تعزف عليه أنامل غير مرئية. يستبد الحنين ببطلنا، ويأتيه النداء بأن هذا هو بيانو فاطمة، وأنها بعد سنوات من الفراق والابتعاد تبعث له بالنغمات المحببة حتى ولو كانت نغمات تحذيرية من هزات أرضية، فيشد الرحال إلى بنها لعله يرى بيانو "بنت الجنوب" التي افترقها عنها بسبب "التعتير" وأشياء أخرى، وهناك في مدرسة الراهبات وقد صار وجها لوجه مع ذلك "البيانو المسحور"، يكتشف أنه النغمة، الذكريات، الرحلة، لم تكن سوى جانبًا من "العزف الكوني" الذي يغلف العالم والذي نراه في "دوران الأرض حول محورها وحول الشمس، دوارنا حول أشواقنا التي لم ترتو ولن ترتوي لكنها تتصبر بالذكرى الطيبة لمخلوقة حقيقة مثل فاطمة".

لا تجتر "بيانو فاطمة" الذكريات، وإنما تستحضر عالمًا إنسانيًا حنونًا بتفاصيله العذبة، وتضع بطلها/ قارئها أمام حقيقة مفادها أننا لسنا سوى ألحانًا تدور في رحاب الكون الفسيح، نتلاقى في لحظة ما، في زمن ما، مع لحن آخر ليس بالضرورة أن يشبهنا، ولكنه يسكن فينا ونسكن فيه، ولو للحظات، حتى وإن دارت دائرة الزمن، وتباعدت الألحان/ الأرواح، ظلت تتطلع بشغف إلى دورة جديدة تسمح باللقاء والامتزاج بأي صورة.

وعلى عكس رهافة "بيانو فاطمة" وشجنها الآسر، يجنح "البحث عن

حيوان رمزي جديد للبلاد" إلى السخرية الممزوجة بكتابة تقوم على التفكير واستدعاء العلم. ويتجلى في هذا النص، خصائص أسلوب المخزنجي المتفرد، وقدرته على الولوج إلى عوالم عدة ومستويات متنوعة من الكتابة والسرد، يبدأ الأمر حتى بتعريف ماهية هذا النص باعتباره "تكريسة"، واصفًا إياها بأنها "تكريس فن القصة على تقنية المقال على سعي البحث ثم أغطى كل ذلك بنار العاطفة"، وهو تصنيف بكر وطازج كما لعلك تلحظ.

نشر هذا النص مسلسلًا لأول مرة في إحدى الصحف عام 2010، ورغم أنها في بعض سطوره يشير إلى عدة وقائع مرتبطة بزمن الكتابة، إلا أن اللافت/ المضحك/ المثير للأسى، أن بعض هذه الوقائع لا يزال قائما حتى يومنا هذا، وإن اختلفت المسميات، ويتجلى ذلك بوضوح في مشروع "الضبعة النووي" الذي يتخذ منه المخزنجي منذ سنوات عدة موقف الرافض بقطعية، وها هو حين يكتب عن مغامرة البحث عن حيوان رمزي للبلاد قبل ثمان سنوات يكتب "وهل هناك أوضح من ذئب المخاطر النووية المتلفع بستار الحلم النووي للسائرين نيامًا والمحترقين في القطارات البائسة والمسارح المقفولة بالبلاهة، والذى لن يكون إلا كابوسًا تحت ناموسية عشوائيتنا وغوغائيتنا الكحلية".

ويخوض المخزنجي في هذا النص رحلة البحث عن "حيوان رمزي جديد للبلاد" بديلًا عن النسر المصري الذي يكشف حقيقته قائلا بأنه " تبعا للتقسيم العلمي للطيور الجارحة ، يعتبر الأدنى بين أقرانه: النسر الضخم أبو برنس، والنسر الأسود سواد الليل، والنسر الهجين، أو ابن الحرام، هكذا على بلاطة. وإذا حطوا على جيفة معًا، يكون على النسر المصري أن ينتظر حتى يكون آخر من يرمرم منهم! "، وبعدما يفكر في أن يكون الجاموس المصري بخصوصيته صالحًا للرمز قبل أن يكتشف أن ذلك سيكون مستفزًا لقطاع كبير من الشعب لا يستطع شراء كيلو من اللحم، يجد ضالته أخيرًا في "الحمار" وذلك؛ لأنه " ليس دمويًا ولا بشريًا ولا تكفيريًا ولا عسكريًا

أمريكيًا، ولا صهيونيًا بالطبع، والذى كان أجدادنا أول من سلبه حريته واحتلوه بالتدجين"، كما أن المصريين القدامي كانوا أول من قاموا بتدجينه قبل ستة آلاف سنة مقدمين للبشرية خدمة كبرى، وذلك لأن التدجين غير الترويض، فالأول يعني أن يتناسل الحيوان في بيئة غير بيئته، بينما الثاني يعني أن يتقى البشر شره، ويبقونه في الأسر، لكنه يظل مضربًا عن التناسل والتوالد.

تتحول عملية البحث عن حيوان رمزي للبلاد، إلى رحلة ممتعة في التاريخ والطب والجغرافيا والأدب والسياسة، كل هذا مغلفًا بحس ساخر وقور قادر على انتزاع البسمة وزرع الأسئلة في العقل، والبحث دومًا عما وراء اعتبار الحمار حيوانًا رمزيًا لبلاد يبدو أنا دومًا في حاجة للتدبر حول إهماله للحمير وهي الطيبة الحنونة المعطاءة، واحتفائه بالبغال التي هي ليست سوى نتاج زواج سفاح جرى بأمر البشر بين حمار وفرس!

الرواية: بيانو فاطمة والبحث عن حيوان قومي للبلاد.
المؤلف: د. محمد المخزنجي.
الناشر: دار الشروق– 2018.

زاوية أخرى: إنتاج المخزنجي المتنوع والغني والمغاير للأدب التقليدي يستحق التهامه كاملًا. من المهم هنا الإشارة إلى المجموعة القصصية الفذة "أوتار الماء"، والكتاب الاستثنائي "لحظات غرق جزيرة الحوت"، الذي يرصد فيها بوصفه شاهدًا وقائع التفجير النووي الكارثي الذي وقع في تشرنوبل الأوكرانية عام 1986.

وكالة الموصلي في انتظار معجزة "أمطار صيفية"

يختار "أحمد القرملاوي" أن يضع قارئ "أمطار صيفية" في ذروة الحدث مع السطور الأولى لروايته، لقد احترقت "الوكالة" ولا نرى الآن سوى بقايا جذوة مشتعلة وطقطقة الأخشاب المحترقة، وأثر لعراك عنيف بين "يوسف" و "زياد" وذهول فاضح في عيون "رحمة" وهي تهبط من التاكسي غير قادرة على استيعاب ما تراه أمامها.

احترقت "وكالة الموصلي" إذن التي ذلك تصدع بالموسيقا والذكر في قلب القاهرة القديمة لسنوات وربما لقرون، لكن ما قصة هذ الحريق المروع الذي يبدو أن تفاصيله أكثر عمقًا وتشابكًا مما يمكن إيجازها في عنوان مختصر من ثلاث كلمات؟

ثمة اعتناء واضح في الرواية ببناء شخصياتها الرئيسية، لدينا يوسف عازف العود العبقري الذي توكل إليه مهمة إدارة "وكالة الموصلي" وتنظيم دروسها في العزف والتصوف عبر أمينها لسنوات طويلة "الشيخ ذاكر"، يوسف رغم يقينه بمنجز الشيخ الموصلي وما تركه، إلا أن الشك يدب في قلبه، ويبدأ في نهب كتب التراث بحثًا عن أثر حقيقي للشيخ الموصلي فلا يجد، فيرتج عقله، متسائلًا " كيف لمؤسس طريقة عابرة للزمن كطريقة الموصلي وصاحب إنجاز موسيقي يوسف بالإعجاز أن يتغافل عنها المؤرخون والدارسون بينما يدونون أعلامًا أخرى أقل بدقة مذهلة؟"، ولدينا زياد رفيق عمره الذي فتح أمامه أبواب عشق العود والعزف عليه، لكنه ضل السبيل فوجد نفسه "خادمًا" للسائحين الخليج الباحثين عن متعة برفقة "عود أصيل" أو "فتاة مثيرة" لا فارق، ثم هناك "زينا" تلك الألمانية

الفاتنة الهادرة التي تنهش طمأنينة "يوسف" وتحيي بداخله النفس المتمردة عبر عرضها الأخاذ بتحويل الوكالة التقليدية التي تنتج آلات العود اليدوية المتقنة إلى مركز موسيقي عالمي يضم الموسيقا التراثية جنب إلى جنب الموسيقا الإلكترونية الحديثة وبمقابل مادي ترتج له العقول.

وهناك رحمة ابنة الشيخ ذاكر التي تقع في هوى يوسف، لكنها تكتشف فجأة حينما يمرض والدها كم هي هشة ووحيدة وغير قادرة على مواجهة الحياة بمفردها، ومن قبل كل هؤلاء هناك "الشيخ الموصلي" ذلك الشيخ الغامض ابن مدينة الموصل العراقية الذي نزح إلى مصر في زمن المماليك مؤسسًا لوكالة تمزج الذكر الصوفي بالعزف على العود حتى صار "عود الموصلي" علمًا بين أعواد العرب.

يبدأ الأمر عمومًا بشرخ في جدار الوكالة القديمة، يعجز الشيخ ذاكر عن التعامل معه بطريقة تقليدية، فإذا أراد دعمًا ماديًا فعليه أن يسافر للخارج، لكن صحته لم تعد تعينه، ثم أنه لا يأمن أن تتولى وزارة الآثار علاج الشرخ فلعل ذلك يزيد من أثره السيئ، فتأتيه تلك الفكرة (أم لعلها تم زرعها في رأسه؟) سيجعل السلفيون الذين يديرون المسجد المقابل للوكالة يمدون سياق الخشب والمظلة التي تحيط بالمصليين حتى أسوار الوكالة فيمكنه ذلك من إصلاح الشرخ بطريقته دون أن تدرك الجهات المختصة عن الأمر شيئًا، ولم يكن الشيخ ذاكر يعلم أن هذا هو أول خطوات ضياع الوكالة برمتها لا رتق الشرخ، ذلك أن السلفيين يعتقدون بأن الوكالة ليست سوى مكان لـ «المعازف" بينما يجب أن يكون فقط مكان لذكر الله، ولا يغير من رأيهم بالطبع قول الشيخ ذاكر لهم بأن ذلك " تفسير مشايخكم لحديث رسول الله، أما نحن فلنا فهم آخر نحن نصنع آلاتنا ولا نشتريها، نبذر فيها أرواحنا، ونبتغي بها مرضاة الله، تماما كما تشذب أنت مسواكك!".

لقد اتخذ السلفيون قرارهم باحتلال الوكالة وقضي الأمر، مثلما قررت "زينا الديناري" بدورها الاستحواذ على الوكالة وتغيير هويتها إلى أخرى

عصرية غربية. بينما كان أهل الوكالة أنفسهم يعيشون صراعاتهم الخاصة فضاعت من بين أيديهم بكل ما تمثل لهم من معان.

يبلغ إحكام وصدق الرواية –التي فازت عن جدارة بجائزة الشيخ زايد فرع شباب المؤلفين 2018–، إلى حد أنه بعد الانتهاء من الرواية سيسارع القارئ الشغوف بالبحث عن قصة الشيخ الموصلي، ليفاجأ بأن الشيخ والوكالة من صنع خيال المؤلف، وأن لا أصل تاريخي لهما، وهذه لعبة تخيلية مارسها "القرملاوي" بإتقان لافت، مثلما نجح أيضًا في صناعة حيلة سردية ذكية، تمثلت في تدخل صوت "زينا الديناري" باعتبارها ناشرة العمل الروائي لثلاث مرات عبر فصول الرواية، لتنقل وجهة نظر أخرى لما جرت روايته عبر الأحداث.

كان يمكن للرواية أن تجنح لعقد حوارات مباشرة لتعبر عن الصراع بين "المادة" والروح، لكن المؤلف أنقذها من هذا المصير مكتفيًا بوضوح الصراع والمقارنة بين أبطالها (زينا ديناري/ زياد) من جهة، و(يوسف/ رحمة) من جهة أخرى، وأن وجدت هذه المقارنة الحتمية متنفسا لها في بعض الحوارات مثلما قالت زينا ليوسف وهي تخوض معها غمار إقناعه بمشروعها العصري (الروح مادة لا يمكن التعامل معها مختبريًا، ورغم ذلك تقول إنها صاحبة الأمر في كل شيء ماذا لو أصابها خلل ما نعجز حينها عن الإصلاح ونركن لحجة سهلة نغلفها بقناعة يائسة).

هكذا عبر بنيان سردي محكم وتشابك ذكي للأحداث وتمازج لمصائر الأبطال، تطرح "أمطار صيفية"– إصدار مكتبة الدار العربية للكتاب– العديد من الأسئلة حول الأساطير التي يمكن نسجها للرموز التاريخية في حياتنا، وضرورة التعامل مع الماضي باعتباره مادة غير مقدسة قابلة للنقاش وإعادة التفسير، وتضع الكثير من علامات الاستفهام حول الطريقة التي يمكن فيها أن يمتزج إرث الماضي بسمات العصر الحاضر، وكيف يمكن أن يحدث هذا دون طمس لهوية أو تشويه لتراث، وكيف سيظل التشدد الديني أحد

أهم أسباب تفكك المجتمع ودخوله في صراعات مستمرة لا تنتهي أبدًا، كما تطرح أسئلة لا تخلو من فلسفة تتعلق بالحب ودرجاته ولعل هذا يتجلى في هذا السؤال الصعب الذي قاله أحد المحبين وهو يبكي في أحضان "الشيخ الموصلي" في زمن بعيد قائلًا (لماذا ينبت الله في قلوبنا الوجد بالمعشوق فتصير حياتنا مرهنة بقربة، ثم لا يرضى أن نزهد في الحياة حين يفرض علينا هجرانه؟ طالما أن الحياة منحة أُعطيتها فما العيب إن رغبت في ردها؟)

كغزالة مكسورة القدمين، تقع "وكالة الموصلي" التي تصدع بالموسيقا والذكر في قلب القاهرة القديمة، فريسة لتشدد السلفيين من جهة وجشع المد التكنولوجي الغربي الذي يتجسد في "زينة دينارى" نصف الألمانية، نصف المصرية من جهة أخرى، وعندما يصل الصراع إلى ذروته، تبدو الوكالة ومحبوها بلا أي أسلحة للمقاومة، لا يملكون سوى انتظار معجزة من السماء أشبه بسقوط الأمطار في عز الصيف لتنقذ الموصلي ووكالته من مصير محتوم، لكن الأمطار الصيفية كما يبدو قد ولى زمن سقوطها.

الرواية: أمطار صيفية.
المؤلف: أحمد القرملاوي.
الناشر: الدار المصرية اللبنانية– 2018.

زاوية أخرى: القرملاوي، وهو بالأساس مهندس متخصص في التشييد، من الذين يحفرون اسمه ببطء ودأب في قائمة الكتاب الأكثر شعبية ومبيعا، ولعل هذا إضافة جيدة لهذه القائمة، كون أن القرملاوي يقدم أدبًا جادًا لكنه جذابًا في ذات الوقت وهذا أمر نادر بكل تأكيد. رواية القرملاوي الأولى "التدوينة الأخيرة" تدور في عالم خيالي لافت وتستحق القراءة.

حدث ذات صيف في القاهرة.. عوالم ما بعد "الأحداث الكبرى"

تمر الأحداث في هذه الرواية بتؤدة وثقل، تمامًا كنهار صيف قائظ، ولا عجب إذن في أن المؤلفة "ياسمين الرشيدي" قد اختارت ثلاث "صيفيات" زمنًا أساسيًا لروايتها التي تدور في ثلاثة مواسم من الصيف القاهري الساخن، أحدهم في منتصف الثمانينيات، والثاني في أواخر التسعينيات، وثالثهم في صيف 2014 الذي جاء بعد عام من صيف سياسي و "دموي" ملتهب، آثرت المؤلفة أن تقتفي أثره لا أن تنقل أجواء روايتها إلى قلب لهيبه.

مع السطور الأولى للرواية– الصادرة عن دار الشروق بترجمة متدفقة وذكية لأحمد شافعي– يبدو الأمر وأننا إزاء رواية جديدة تتناول أزمة الاختفاء المفاجئ للأب والذي غالبا ما يتم لأسباب سياسية، وأن الأحداث ستعكس رحلة البطلة خلال سعيها للبحث عن الأب المفقود، حتى إن عبارات السرد الموجزة والمشاعر المكتومة والأحاسيس المغلقة التي تحيط بالعلاقات بين أبطال الرواية، يجعلها تتماس كثيرًا في فصلها الأول مع أجواء رواية الكاتب الليبي/ الأمريكي صاحب البوليترز "هشام مطر" في روايته الشهيرة "اختفاء"، لكن "ياسمين الرشيدي"– الكاتبة المصرية التي كتبت روايتها هذه بالإنجليزية لأسباب تتعلق فيما يبدو بطبيعة عملها ككاتبة منتظمة في نيويورك رفيو أفو بوكس– سرعان ما تخرق هذه التوقعات، وتبدأ في إضفاء سمة واقعية على الرواية، وتستعيد جانبًا من معالم وأجواء القاهرة في الثمانينيات، ثم أنها تدريجيًا تكشف للقارئ بأن معضلة الرواية ليست فقط هي اختفاء الأب الذي سيطول لأكثر من ثلاثين عامًا متصلة،

وإنما في هذه التغيرات التي عصفت بشخصية البطلة وبـ «قاهرتها" خلال هذه السنوات.

في الفصل الأول الذي يدور في "صيف 1984" وما قبله بعدة سنوات، يلملم القارئ بصعوبة، يبدو أنها مقصودة، أسباب الغرابة التي تحيط بأسرة البطلة، الأمر لا يتعلق باختفاء الأب المفاجئ والذي تتحدث عنها البطلة دومًا بوصفه "رحيل" وكأنه أمر تم بإرادة الأب وليس قسرًا، وإنما أيضا في معرفة أن ابن عم الأب متورط وبشكل مباشر في عملية الاغتيال الكبرى التي طالت الرئيس السادات عام 1981، وهو أمر كان يمكن أن يضيف طابعًا مثيرًا وتشويقيًا على الرواية، ويبدو أن هذا السبب بالذات الذي جعل المؤلفة لا تتوقف عنده كثيرًا، وتبقيه في خلفية الأحداث، وكأن الغرض منه هو الإشارة إلى تورط العائلات المصرية التي يمكن وصفها بالثرية على الأقل في زمن ما قبل ثورة يوليو 1952، في صناعة أجيال من المتشددين والمتطرفين، مثلهم في ذلك مثل زوج تلك السيدة القادمة من إمبابة؛ لتقوم بأعمال التنظيف في بيت الأسرة الكبير، والذي نعرف أنه "إخوان" لكنه يفكر بجدية في التخارج من الجماعة عقب مذبحة الدير البحري في الأقصر عام 1997.

تبرز في الرواية أكثر من شخصية، لكن يظل أبرزهم "ديدو" صديق البطلة الأناركي الناصري، الذي يحلم بالتغيير والثورة منذ الثمانينيات، ويخبرها رؤيته في ذلك بأنه "السبيل الوحيد لتغيير حياتنا هو أن نطالب بالتغيير". ثم نراه يسكن السجن كمعتقل سياسي في 2014، تمر العلاقة بينه وبين البطلة بمساحات تقارب كبيرة، حتى إنه يكاد يتحول لمرشدها الفكري في مرحلة مبكرة من عمرها، يصطحبها في رحلات لوسط البلد والتهام الآيس كريم، وينقل له وجهات نظره في الحياة والسياسة وحتمية التغيير، ويحذرها من السقوط في فخ البلادة، قائلًا "بلدنا الذي يصيبنا بالبلادة. أسأله ما معنى البلادة، معناها أن تستيقظي كل يوم وأنت لا تعرفين

ماذا تفعلين"، ثم تتباعد بينهم الطرق مثلما حدث مع كثيرين عقب ثورة يناير، وقد اختار هو طريق "الثورة مستمرة ودائمة" بينما هي كانت بحاجة للتفكير والتدبر، حتى عندما تزوره في السجن أخيرًا، تجده قد تقدم في العمر سنوات عدة، وانحنى جسده، يخبرها بأن السجن كسره، يبدو عليها التعاطف، لكنها لا تقوى على أن تذكره بنصيحته التي قالها لها ذات يوم: "عندما أجد موجة سوف تضربني في وجهي يجب أن أغطس تحتها". بدا أنه لم يطبق هذه النصيحة قط.

ثم أن هناك العم الذي لا يحب عبد الناصر ويراه الرجل "الذي صب خرسانة مسلحة في حقل أزهار ثم انتظر هو والآخرون أن تتفتح الأزهار"، والذي يبدو حزينًا لأنهم قد أزالوا السلم الدائري الذي كان يزين ميدان التحرير معتبرًا أن ما حدث هو "عمل من أعمال التخريب وطمس هوية المدينة. كل ما سبق أن عرفناه سوف يمحي كل ما يحمل أثرًا من تاريخ الماضي، تلك هي التركة التي سيرثها جيل قادم". ويبدو العم تجسيدًا لجيل ظل ينتظر تغييرًا دون أن يشارك في صنعه، ويتجلى ذلك في أنه ظل أعزبًا طوال حياته منتظرًا طلاق حبيبته الأولى والوحيدة من زوجها، وهو أمر لم يحدث بطبيعة الحال.

تمر الرواية على اعتصام الجامعة الأمريكية الشهير في منتصف التسعينيات، وكيف أن الصحف الحكومية اتهمت الطلاب المشاركين في الاعتصام بأنهم يتعاطون المخدرات، ويمارسون أفعالًا جنسية، ويعبدون الشيطان، ويمارسون الشذوذ، ولعلهم مرضى بالإيدز. وهي ذات التهم التي ستطول الشباب الذي اعتصم بميدان التحرير في بدايات ثورة 25 يناير وما بعدها من أحداث.

لم تقل ياسمين الرشيدي ذلك صراحة في روايتها، واختارت أن تخبر قارئها بأن ما حدث في 2011 (السنة التي قفزت عليها في الأحداث بالأساس) ربما يكون قد وقع بالفعل قبل ذلك بسنوات، وهذه هي سمة

تحيط بالرواية ككل. الإشارة إلى الحدث الرئيسي بحدث سبقه أو لاحق به بسنوات. الابتعاد عن سنوات "الانفجار" والتعامل مع تداعياتها (الفصل الأول يدور في 1984، أي بعد اغتيال السادات بثلاث سنوات، والثاني في 1998، أي بعد حادثة الدير البحري بسنة وبعد زلزال أكتوبر المدمر بست سنوات، والفصل الأخير في 2014، أي بعد ثورتي 2011 و2013 وموقعة رابعة).

مثلما رحل الأب فجأة، نراه يعود فجأة، للدقة يظهر ولا يعود. يبدو أنه خرج من السجن. لكن عودته لا تجيب عن كثير من الأسئلة العالقة، هل كان سجنه سياسيًا أم له علاقة بمقتل السادات، أم كما يقول هو بسبب صراعه على البيزنس مع "ولاد الريس"؟ لماذا لم يعد قط إلى البيت الكبير، وظل بعيدًا عن البطلة وأمها؟ ولماذا تعاملت البطلة نفسها مع هذا الأمر الغريب باعتباره أمرًا طبيعيًا؟ ربما هي أسئلة أرادت "ياسمين الرشيدي" أن تتركها لخيال القارئ، لكنها كانت بحاجة إلى نثر مفاتيح تساعده على الإجابة خلال الفصول الثلاثة، أو لعلها اختارت أن ينحاز كل قارئ لتفسيره، وهو الأمر الذي سيساعده بعد ذلك في استيعاب ذلك القرار الحاسم الذي اتخذته الأم فيما يتعلق بالبيت الكبير الذي شهد رحيل الأب ووفاة الجدة ونصائح العم.

حدث ذات صيف بالقاهرة، تختار أن تتحدث عن الأثر الاجتماعي والنفسي الذي تتركه الأحداث السياسية الكبرى على البشر. تفعل ذلك بنفس هادئ وبطيء وتدريجي وبدون مباشرة، وعبر الحديث عن تفاصيل ومنمنمات صغيرة، ساهمت وتساهم في تشكيل وعينا؛ لتشير بوضوح إلى أن التغيير حتمي وقدري ومحسوم، لكن تداعياته هي التي لا يمكن توقعها أبدًا.

الرواية: حدث ذات صيف.
المؤلف: ياسمين الرشيدي.

الناشر: دار الشروق– 2018.

زاوية أخرى: هذه هي الرواية الأولى لياسمين الرشيدي، ثم أنها مترجمة عن الإنجليزية، وهي كما قرأت للتو فيها من ظلال ثورة يناير، لكن لياسمين كتابًا آخر عن ثورة يناير هو "المعركة من أجل مصر" **The battle for Egypt** :. لم يترجم حتى كتابة هذه السطور.

حدث في برلين.. نازيون في القاهرة

تختار رواية "هشام الخشن" الأحدث "حدث في برلين"، زمنًا دسمًا أساسيًا لتنطلق منه جذور الأحداث، سنوات صعود "هتلر" الدموية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، حيث لا صوت سوى نبرات "الفوهرر"، وحيث الاحتشاد وراء معاني كبرى شديدة الشوفينية والعنصرية مثل الجنس الآري وألمانيا العظمى، وعادة ما تحفل مثل هذه الأوقات "المجنونة" في حياة الأمم والشعوب، بالعديد من القصص الإنسانية التي "تنهرس" تفاصيلها، وتضيع آهات أصحابها وسط هدير الجماهير الصاخبة المؤيدة للزعيم ولكل أفعالها.

ومن وسط هذه التفاصيل يختار الخشن أن يروى قصة ثلاث فتيات ألمانيات هشات، ارتبط مصائرهن معًا، وجمعهن القدر لاحقًا رغم سنوات البعد والشتات، لكنه كان قد فعل فيهم أفعاله ومقالبه.

الفتاة الأولى هي ليليان شميدت، ابنة الجنرال الشرطة الألماني الشريف، التي تجد نفسها في صدفة قدرية، السكرتيرة المباشرة لواحد من أكثر قيادات الدولة النازية جدلًا في التاريخ، أدولف إيخمان، ضابط الرايخ الثالث الذي كان مسئولًا عن ترحيل اليهود من ألمانيا والدول الأوربية الخاضعة لسيطرة النازية إلى خارج أوروبا أو إلى معسكرات القتل، واتهم لاحقًا بالتورط في قتل أكثر من مليون يهودي، وقد استطاعت دولة إسرائيل بعد قيامها تنفيذ عملية اختطاف إيخمان الهارب إلى الأرجنتين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ونقل إيخمان في عملية مخابراتية استعراضية إلى تل أبيب، وحوكم في عجالة عام 1960 قبل أن يتم تنفيذ حكم الإعدام عليه

ونشر رماده في البحر المتوسط عام 1962.

عقب انهيار الحلم النازي، وانقسام ألمانيا إلى ألمانيتين، إحداهما شرقية والأخرى غربية، تجد "ليليان" نفسها في ورطة كبرى، "صائدو النازية" بدأوا في تتبعها، وقد أصبحوا أكثر نفوذًا ونشوة بعد اصطياد "إيخمان"، هكذا تجد ليليان نفسها مضطرة لأن تبدأ رحلة هروب مضنية من بلادهما، بالتعاون مع منظمة ألمانية تدعى الأوديسا، كانت تستهدف إبعاد المتورطين في العمل مع النازية دون أن تكون لهم يد مباشرة في جرائمهم بعيد عن أعين الصيادين، الذين هم بالطبع من اليهود أو الإسرائيليين.

تصل "ليليان" إلى مصر بعد رحلة هروب ذاقت فيها الهوان، لتجد نفسها مرة أخرى برفقة واحد من أشهر رجال النازية الذين فروا بعيدًا عن أعين الصيادين، "هانز إيزل" وهو طبيب اشتهر في معسكرات النازية بلقب الجزار أو "الملاك"– على سبيل السخرية– كونه كان يجري تجارب طبية على ضحاياه دون تخدير. تعمل ليليان لدى هانز الذي بات يقدم نفسه كطبيب ألماني مهاجر في أوساط المعادي الراقية، كممرضة، لكنها تتعرض لصدمة جديدة عندما ترى محاولة لاغتيال "هانز" في قلب عيادته، ليبدو لها أن الهروب من يد صائد النازي لن يطول كثيرًا حتى في مصر.

الفتاتان الأخريان، هما "هيلدا" شقيقة ليليان التي تتزوج من شاب ألماني شرقي، وتذهب إليه حيث تعيش في دولة حديدية، لتجد نفسها وزوجها فجأة في معسكرات الاعتقال بتهمة الخيانة للوطن، بينما الفتاة الثالثة هي "راشيل" ابنة التاجر المرابي اليهودي، التي تفقد أسرتها في عمليات القتل الجماعي لليهود، وتتعاون لاحقًا مع "صائدي النازية" لتجد نفسها في مواجه جارتها المقربة "ليليان" التي أنقذتها أسرتها من الموت ذات مساء ألماني جنوني كان يتم فيه الاعتداء على كل ما هو يهودي.

تجذب "حدث في برلين" قارئها، من السطور الأولى، لأنها مكتوبة

بنفس مشوق وجاذب. كما أن هناك ذكاء وإتقان في الانتقال بين الأزمنة المختلفة (ثلاثينيات وستينيات وتسعينيات القرن العشرين)، ويتضح المجهود البحثي الذي قام به المؤلف للإلمام بتفاصيل تلك الأزمنة وبخاصة الثلاثينيات منها حيث تفاصيل الحياة اليومية في ألمانيا تحت حكم النازي، لكن يظل هناك تساؤلًا– لا تولده حدث في برلين، فحسب– عن المساحة التي يمكن فيها للمؤلف استخدام شخصيات تاريخية حقيقية، وتوريطها في أحداث تخص أبطال عمل روائي دون الإشارة لدور الشخصية التاريخية واقعيًا. فإذا كان مقبولًا ذلك مع شخصية معروفة لكل المهتمين بتاريخ النازية مثل "أولف إيخمان"، فإن استخدام شخصية "د.هانز" كان بحاجة إلى إشارة صغيرة، في الهامش أو ربما بعد انتهاء الرواية، لحقيقة وجوده في مصر، خاصة وأن هناك تقديرات تتحدث عن هروب نحو مائتي ضابط ألماني نازي إلى القاهرة واستقرارهم بها، عقب بدء عمليات صيد النازيين، ولعل د.هانز ورفيقه د.أربيرت هايم، أحد أشهر هؤلاء.

الإشارة إلى ذلك، لم تكن لتنتقص من حق المؤلف في نسج عالم روائي خيالي خاص به، خاصة وأن الصفحات الأولى من الكتاب، بها أكثر من هامش لشرح مفردات تتعلق بالزمن النازي، بعضها معروف، مثل الرايخ الثالث، والجيتوهات.

التقطت "حدث في برلين" تلك الحقيقة الدرامية الملهمة "هروب نازيين إلى القاهرة"، لكن لم تجعلها هي أساس السرد في الرواية، ولكنها مجرد تكأة تستند لها الأحداث، ورغم أن ذلك يبدو منطقيًا مع تدفق الأحداث في الرواية، إلا أن هناك تساؤل عن سبب "تفويت" فرصة التطرق لعالم ثري ومشوق لـ «النازيين في القاهرة"، والاكتفاء باستعراضه ظاهريًا فحسب.

منذ مفتتح الرواية في صفحاتها الأولى بجملة "التاريخ صنيعة حكائه"، يبدو أن الهاجس الأكبر الذي دفع "الخشن" لكتابة "حدث في برلين"،

هو محاولة الإجابة عن سؤال شائك، لماذا تدفع الشعوب ثمن قرارات حكامها المجنونة، وهو ما تجلى في الرعب الذي عاشته ليليان طول سنوات عمرها، لمجرد أنها كانت سكرتيرة تقوم بأعمال رويتية لأدولف إيخمان، بل أن الرواية تطرح سؤالًا أخلاقيًا آخر حول مسئولية "الأتباع" عن قرارت "المسئولين"، كان هذا المنطق هو أحد دفاعات "إيخمان" خلال محاكمته في إسرائيل. "لقد كنت أنفذ أوامر رؤسائي، فلماذا علي أن أدفع الثمن وحدي؟". في ثنايا الأحداث يتسرب إحساس بتعاطف المؤلف مع "الأتباع" كونهم لم يكن هناك أي بديل أمامهم سو ى تنفيذ الأوامر، لكن هل هذه هي الحقيقة فعلًا خاصة مع نظام حكم وحشي كما كان الحال مع النازية؟

هذا الميل للدفاع عن "ضحايا العمل تحت قيادات مجنونة"، انقلب إلى خطابية مباشرة بعض الشيء في نهاية الرواية، بدا أن ذلك الهم قد سيطر على المؤلف بدرجة جعلته يصر على أن يقوله بشكل مباشر وصريح على لسان واحدة من بطلات الرواية، صحيح أن ذلك جرى وفق حيلة درامية مقبولة "برنامج إذاعي" تسمح باللغة المباشرة، إلا أن "تلخيص" غرض الرواية على لسان بطلتها، ربما أضعف من أثر ذلك قليلًا. ثمة إشارة أيضًا إلى أن "ضمير المتكلم" الذي لجأ إليه المؤلف للحديث على لسان "ليليان" و "هيليدا" ربما يثير بعض التشوش للقارئ، كون أن الصوتين يتداخلان في ذهنه أحيانًا.

بعيدًا عن أزمة "ليليان شميدت" في "حدث في برلين" ومحاولاتها المستمرة للتخلص من ماضٍ تورطت فيه، وصار عليها أن تدفع ثمنه مجبرة، فإن الرواية نموذج جلي لما يعرف بـ «أثر الفراشة"، حيث يؤثر حدث صغير يقع في "برلين"، وهو موافقة ليليان على الانتقال للعمل كسكرتيرة لدى إيخمان، على مصائر جيلين على الأقل من هذه الأسرة، وتتسبب هذه الخطوة التي ربما تكون عادية في زمن عادي لكنها ليست كذلك حتمًا في زمن توهج النازية وسقوطها؛ لأن تحول حياة "ليليان" وشقيقتها إلى جحيم،

وشتات، ورحلة هروب لا تنتهي أبدًا، حتى بعد العثور أخيرًا على الكمان الأثري النادر الذي كانت تعزف عليه "هيلدا" مقطوعات الحب والشوق مع زوجها المحمل بأفكار "يوتوبية" عن الشيوعية ودولتها في ألمانيا الشرقية.

حدث في برلين، إذن، تنحاز بطبيعة الحال إلى البشر الذين تضيع أحلامهم وسط صخب "المصطلحات الكبرى"، والذين يجدون أنفسهم متورطين في خدمة أفكار عادة ما يدفعون هم ثمن سقوطها أكثر من أي شخص آخر، لتؤكد على مستوى آخر، أن العالم صغير وأن الأوجاع ممتدة، لدرجة أن ما يحدث في برلين يصل صداه للقاهرة وما بعدها.

الرواية: حدث في برلين.
المؤلف: هشام الخشن.
الناشر: المصرية اللبنانية 2018.

زاوية أخرى: حجز هشام الخشن مكانًا ثابتًا في قائمة الكتب الأكثر مبيعًا رغم أنه نشر أول أعماله "حكايات مصرية جدا" في 2010 فحسب، وقد كانت أقرب إلى المجموعة القصصية، يبدو الخشن متمكنًا من أدواته الروائية بوضوح في روايتي "تلال الأكاسيا" و "جرافيت" التي وصلت للقائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية، وفيها يتتبع الحياة الدرامية لواحدة من رموز التحرر النسائي في مصر "درية شفيق".

أفراح المقبرة.. ذلك الرعب المصري الخالص

لا تحتوي المجموعة القصصية الأخيرة لرائد أدب الرعب العربي د. أحمد خالد توفيق والتي صدرت عن دار الكرمة، تحت عنوان "أفراح المقبرة" على قصة تحمل نفس هذا الاسم، ويبدو الأمر وكأنه لغز جديد– وربما ليس أخير– تركه أحمد خالد لقرائه، فأنت بعد أن تفرغ من قراءة كل قصة ستتساءل، ما علاقة الأحداث التي دارت هنا بالمقبرة، فضلًا عن علاقتها بالأفراح، فالقصة الأولى "نيولوجيزم" تروى معاناة شاكر، مهندس الكمبيوتر ذو السادسة والعشرين من عمره، الذي نراه يتحدث مع خطيبته بالعربية المصرية المعتادة، ثم فجأة وجد نفسه يتحدث بلغة غير مفهومة على الإطلاق قائلًا "بيسكادوس إيلي رواتا إيلي.. نافارك دوهار.. شيشل دوهار.. سربنت دوهار.. ... هنيلوب لوا". سيجن جنونه طبعًا، وخطيبته بطبيعة الحال، وكل من يعرفونه، وسيقتل الإنترنت بحثًا عن معنى لهذه الكلمات التي أصبح يقولها بهدوء ويقين تام كأنه يعرفها منذ صغره، قبل أن يأتيه الحل فجأة عبر مكالمة تليفون غامضة.

الأمر سيتكرر في غالبية قصص المجموعة لاحقًا. هناك الكثير من مصاصي الدماء والقتلة الغامضون والمستنقعات والكائنات المرعبة الليلية، لكن المقبرة لم تتجلَ في أي منها.

عقب الانتهاء من التهام المجموعة الدسمة، ستكتشف أن العلاقة واضحة جدًا.

ما الذي يفرح أي مقبرة على ظهر هذا الكوكب؟ الموت بكل تأكيد.

المزيد من الموتى الذين تلتهمهم. هنا فقط يمكن لأي مقبرة تحترم نفسها أن تحتفل وأن تطلق أفراحها، ويبدو أن هذا هو الرابط الأساسي الذي يجمع بين قصص المجموعة التسعة. فجميعها يزورها الموت/ الشر، ويختار من بين أبطالها، فهل هناك أفراح للمقبرة أكثر من ذلك؟

يتنوع حجم القصص التسعة بشكل لافت، فأربعة منها "نيولوجيزم وموعدنا الليلة والأخرى وبعد الجلسة" لا تزيد في عدد صفحاتها عن سبع فقط، بينما تقترب قصص "سفاح المستنقعات وعشر علامات ونادي أعداء مصاصي الدماء" لنحو ثلاثين صفحة كل على حد، ويضفى ذلك التنوع ميزة إضافية على المجموعة، وإن كان قراء أحمد خالد المخضرمين حتمًا يميلون إلى القصص الدسمة متشعبة الأحداث والشخصيات، أكثر من تلك القصيرة، إذ تقوم الأخيرة عادة على حبكة تعتمد على الخدعة، أو تحرك البطل في طريق نعلم جميعًا أنه خطأ، وإلا لما كتبت القصة بالأساس، بينما قصص "سفاح المستنقعات ونادي أعداء مصاصي الدماء" على سبيل المثال فتضمان كل ملامح الرواية القصيرة من تصاعد لأحداث وتعدد شخصيات، حتى وإن لجأت إلى نفس ذات الحبكة "الطريق الخطأ" فإنها تظل أكثر تشويقًا ومتعة لقارئها.

السمة الأكثر بروزًا في قصص المجموعة، أن جميع أبطالها تقريبًا من بيئة مصرية خالصة، وهي عادة مال إليها أحمد خالد توفيق في كتبه التي تضم قصصًا بعيدًا عن سلسلة الرعب الأشهر "ما وراء الطبيعة" التي كان بطلها مصري بالطبع، طبيب أمراض الدم الساخر دومًا "رفعت إسماعيل" إلا أنها لأسباب عدة من بينها متطلبات الأحداث وخامات الرعب الموجود بكثرة، فإنها دارت في عوالم غربية أوروبية وأمريكية، هنا في "أفراح المقبرة" الرعب والتشويق والترقب مصري خالص، وهذا يضفي – يالللغرابة– بعدًا محببًا للرعب والخوف إن جاز التعبير. قصة مثل "سفاح المستنقعات" مثلا بطلها صحفي تحقيقات في جريدة محلية تصدر في الزقازيق، وأرض

الأحداث المرعبة هي "بركة عنان" وهي واحدة من ثلاث برك شهيرة في محيط محافظة الشرقية مشهورة بصيد البط، حتى إن واحدة منها "بركة العباسية" كانت البركة المفضلة للملك فاروق ليمارس فيها هوايته.

البركة الهادئة تتحول فجأة من أرض لاصطياد البط، إلى مستنقع يقتل فيها الصيادين وأصحاب الحظ البائس، وبطريقة وحشية مرعبة، سيتتبع الصحفي النابه الخيط، وسيسير كالمجذوب في طريق يظنه سبيله إلى الحقيقة، دون أن يدري أي رعب ينتظره.

التمسك بالأجواء المصرية للمجموعة يصل ذروته في قصة "نادي أعداء مصاصي الدماء"، اسم القصة للوهلة الأولى، يوحي باستحالة أن تدور أحداثها في مصر، قراء أدب الرعب يعرفون جيدًا أن مصاصي الدماء لم يزوروا مصر من قبل، وأنه يمكن أن تجد مصاص دماء بين الأشجار في غابات رومانيا أو في الشوارع التي تضم حانات رخيصة في الولايات المتحدة، لكن من الصعب– ربما من المستحيل– أن تجد واحدًا من مصاصي الدماء يتجول على الطريق الزراعي عند وصلة بنها، أو يشرب من دم أحدهم في نجوع بني سويف. لكن أحمد خالد فعلها وبذكاء ومتعة كما اعتاد دومًا.

تبدأ الأحداث المروعة لهذه القصة في الولايات المتحدة بالفعل. كثر مصاصو الدماء الذين يقتلون ضحاياهم بطريقة وحشية، عبر استخدام موسى حلاقة لذبح الرقبة، ثم مص الدماء على "رواقة" لاحقًا. توحش المصاصون وفاقت قدراتهم طاقة رجال الشرطة، حتى صار لزامًا على الشرفاء الجدعان أن يجمعوا أنفسهم ويكونوا "نادي أعداء مصاصي الدماء"، وخلال قيامهم بمعركتهم ضد "أهل الشر" من المصاصين، يكتشفون نزوح عدد من مصاصي الدماء إلى مصر، إلى صعيدها، تحديدًا إلى معبد الكرنك في الأقصر، فما السبب؟

سخمت بالطبع.

وسخمت هي أحد الآلهة الفرعونية القديمة، تحمل رأس لبؤة وجسد امرأة، وهي كانت "شنيعة" بالفعل، إذ أرسلها الإله رع – وهو أحد أهم الآلهة وأكثرها نفوذًا وتأثيرًا في الميثولوجيا المصرية القديمة– من أجل أن تخمد ثورة المصريين القدماء ضد رع، وفعلت سخمت ذلك بنفس راضية متعطشة للدماء، فراحت تفتش القلوب عن أي ذرة تمرد ضد الإله، وإذا ظفرت بأحدهم أمسكت به وامتصت دماءه امتصاصًا، كانت تشرب من دم أعداء رع حرفًا (يبدو أن أسطورة سخمت لم تنته حتى يومنا هذا قط). ثم بعدما انتهت من مهمته وعادت السيطرة التامة لرع، عاثت سخمت فسادًا، ولم يعد رع نفسه قادرًا على لجم شرها وتعطشها للدماء، فأعدت حيلة بأن مزج الدماء بخمر وسكبها في طريقها، فشربت منه، ولم تعد إلى شرب الدماء من بعدها. هل توقفت سخمت فعلًا عن مص الدماء؟ هل خرج كل مصاصي الدماء من رحمها؟ هذه أسئلة يحاول عفيفي ومنى أبطال قصة "نادي أعداء مصاصي الدماء" الإجابة عنها.

ثمة تعاطف واضح مع شخصية الصحفي في المجموعة، إذ أن هناك قصتين على الأقل بطلاها من الصحفيين، صحيح أن نهاياتهم لم تكن سعيدة كثيرًا، لكن هناك احتفاء وتقدير واضح بالدور الذي تلعبه الصحافة في الكشف عن الجرائم واقتحام الملفات المجهولة. هناك أيضا اتكاء على رمزية "مصاصي الدماء" وكيف يمكن أن يكون الواحد منهم مصاص دماء فعليًا ورمزيًا، كأن يكون عضوًا فاسدًا في الكونجرس على سبيل المثال.

كعادة معظم روايات أحمد خالد توفيق وقصصه الطويلة، فإنها تضم بين ثناياها خامة سينمائية فذة، قصتي "سفاح المستنقعات" و "نادي أعداء مصاصي الدماء" تحديدًا، تصلحان لأن يتحولا إلى فيلم رعب مصري أصيل وممتع وقادر على منافسة أفلام الرعب الأمريكية، خاصة أن الاثنين يستندان إلى بيئة مصرية خالصة "برك البط في الزقازيق– متحف الكرنك في الأقصر"، وكلاهما يقوم على أسطورتين إحداهما مغاربية– مصرية، والأخرى مصرية

فرعونية قديمة، وكأن أحمد خالد توفيق كعادته وبهدوء ودون صياح، يقول لأهل السينما، "يا قوم إليكم هذه الأفكار والأماكن الطازجة، وارحمونا من كل هذه التيمات المكررة والأماكن المعلبة".

"أفراح المقبرة" دليل آخر متجدد على موهبة د.أحمد خالد توفيق الفذة. ليس فقط في صناعة الحبكة والتشويق والاسلوب الرشيق كمهر عربي أصيل، وإنما أيضًا في قدرته على صناعة عالم خاص ممتع وشديد الخصوصية من أخبار متناثرة، أو من تفاصيل أسطورة عابرة، أو حتى من برك البط التي طالها الفساد والإهمال؛ فتحولت إلى مستنقعات، من رحمها تولد القصص والحكايات الآسرة؛ ليصنع من كل ذلك "أسطورته الخاصة" بين كتاب الأدب العربي المعاصر.

الرواية: أفراح المقبرة.
الناشر: الكرمة 2018.

زاوية أخرى: أزمة أخرى! كيف تكتب هامشًا صغيرًا عن أحمد خالد توفيق. حسنا هذه ترشيحات لعدد من أكثر كتبه تميزًا وتفردًا ننصح بقراءتها بشدة: ثلاثية ايجور من سلسلة ما وراء الطبيعة، روايته القصيرة "الجاثوم"، وقد صدرت في جزئين بذات السلسلة، كتاب "اللغز وراء السطور" الذي يكشف فيها عن كواليس الكتابة، وبالطبع رائعته الخالدة "يوتوبيا".

حصة الذكريات والعبر

أيامي مع كايروكي.. الموسيقا التصويرية لجيل حاول تغيير العالم

ربما يكون هذا الكتاب هو الأول من نوعه باللغة العربية على الإطلاق!

أن يقوم كاتب بمعايشة لما يزيد على عام مع أبرز الفرق الغنائية في مصر وأكثرها تأثيرًا وجماهيرية –ربما في آخر أربعين سنة منذ بزوغ فكرة الفرق الغنائية في أواخر السبعينيات– ، وأن يسجل هذه التجربة في كتاب ضخم، لا يكتفي برصد كواليس صناعة الأغنيات والحفلات، وإنما أيضًا يكشف عن الكثير من الجوانب الإنسانية والشخصية والصراعات الداخلية داخل هذه الفرقة، وقصص الميلاد الصعب للأغنيات، والصراعات التي لا تنتهي مع ذواتهم وجنونهم والسلطة بجميع أشكالها، فإن كل هذا يحدث لأول مرة فعلًا.

يأتي إذًا كتاب "أيامي مع كايروكي" للكاتب ولاء شريف– إصدار الدار المصرية اللبنانية– ليضع النواة الأولى في هذه النوعية من الكتب في المكتبة المصرية (وربما العربية)، وهو صنف من الكتب التي تتطلب عزيمة كبيرة، إذ يبذل فيها الكاتب الكثير من (الشقا)، في المعايشة والتوثيق والحذف والإضافة، ويكون مطالبًا في النهاية بأن يقدم كل ذلك بأسلوب جاذب دون أن يقع في فخ "الترويج الفج" أو برودة "الرصد الحيادي".

ورغم كونها التجربة الأولى، إلا أن كتاب "أيامي مع كايروكي"، ينجح في الاختبار الصعب بنسبة متقدمة، فالكتاب الضخم الذي يقع في خمسمائة وخمسين صفحة، يؤرخ بذكاء ومهارة لفترات التكوين والانطلاق

والجماهيرية الغفيرة لفريق "كايروكي" الذي وإن بدأ الانتشار على مهل منذ 2004، إلا أن انطلاقته الحقيقة جاءت بالتزامن مع ثورة 25 يناير 2011، وتحديدًا عقب ذيوع أغنية "صوت الحرية"، التي تحولت بين ليلة وضحاها إلى "النشيد الوطني" للثورة، والموسيقا التصويرية لما جرى في ميدان التحرير وغيره من الميادين خلال ثمانية عشر يومًا استثنائية في تاريخ مصر المعاصر.

يلخص الكتاب سر كاريوكي في عبارة على لسان عصام السحرتي، وهو مهندس صوت مميز اعتاد أن يصطحب كايروكي في كل حفلاتهم من الإسكندرية للقاهرة ولندن، يقول: "جمهور كايروكي هو سر نجاحهم. هناك حالة ارتباط غير طبيعية بينهم وبين جماهيرهم، فهم يرون الفرقة تتحدث باسمهم وتقول ما في داخلهم كما أن قدرتها على خلق جمل موسيقية جذابة يرددها الناس بسهولة هائلة، لا ينافسها فيها أحد".

لكن ذلك الارتباط النادر بين الجمهور وكايروكي لم يأت من فراغ أو وليد صدفة، وإنما وراؤه رحلة كفاح حقيقية وملهمة بدأت منذ عام 2003، في هذا الوقت كان أمير عيد (المغني الرئيسي في الفرقة وكاتب كلمات الأغاني ووجهها الأشهر) قد بلغ السابعة عشرة من عمره، وكوَّن برفقة صديقيه الأقرب "هواري وتامر" فرقة موسيقية صغيرة أطلقوا عليها اسم "بلاك ستارز". الفرقة تكونت من شلة "المعادي" التي كانت تلعب الكرة "وتفوز بالعناد والإصرار وليس بالمهارة" وبعد سماع مئات الأشرطة في كاسيت "هيتاشي" في منزل أمير بالمعادي لبينك فلويد وميتاليكا وبوب مارلي وجانز آند روزيز، وكان معهم صديقهم آدم الذي سيبتعد عنهم في رحلة دراسية درامية في أستراليا لخمس سنوات قبل أن يعود لينضم لهم لاحقًا.

كانت الفرقة تقدم الأغنيات الأجنبية الشهيرة آنذاك بطريقة تقليدية فقيرة في بعض كافيهات المعادي، قبل أن يغيروا اسمهم لاحقًا لـ «كايروكي"

ليبدأوا في تقديم أغنيات خاصة بهم، لكنها أيضًا لم تحمل بصمة كبيرة، ثم فجأة طرأ تغير على أمير عيد، بدأ يقرأ بنهم، ازداد وعيه، ثم أصبح مفتونًا باثنين من أساطير المزيكا في مصر والعالم، الأول هو "الريس بيرة"، كاتب وملحن أغاني أحمد عدوية الشهيرة مثل "السح الدح امبوه" و "قرقشندي دبح كبشه"، والثاني هو الكاتب والموسيقي الأمريكي "بوب ديلان" الذي سيفوز لاحقًا وفي سابقة نادرة بجائزة نوبل للآدب 2016.

يقول أمير في الكتاب، إنه رأى في كلاهما شيئًا مختلفًا لأنهما كانا يكتبان عن الناس ويستلهمان الموسيقا من الشارع، ولآنهما خرجا بالأغنية من الموضوعات التقليدية المعتادة.

ويبدو واضحًا تأثر أمير عيد– وكايروكي بطبيعة الحال– بالريس بيرة وبوب ديلان، كون أن معظم إن لم تكن كل أغنيات الفريق مغايرة للغناء التقليدي، وبخاصة في معنى الكلمات وطريقة الأداء. هي تعكس صوت الشارع فعلًا، في قالب موسيقي عصري ومتقدم، كما أنه الفرقة وأغانيها خارج التصنيف، ويصعب توقع خطوتهم القادمة دومًا.

الطريق كان صعبًا في كل الأحوال، في 2005 عرفت كايروكي الطريق إلى "افتر ايت"، وهو نادي ليلي وبار شهير في وسط البلد (أغلق قبل عام تقريبًا)، وبدأوا يغنون فيه أسبوعيًا كل يوم اثنين، اليوم كان ذا دلالة لأنه أقل الأيام ازدحامًا بالزبائن وبالتالي كان تغني فيه الفرقة "الأرخص".

كان كايروكي يغنون لخمس أو ست ساعات متصلة مقابل أربعمائة وخمسين جنيه لجميع أعضاء الفريق، ثم كانوا يستقطعون جزءًا من هذه الأموال للترويج لحفلاتهم التي بدأت على استحياء في ساقية الصاوي، وفي الأغلب كانوا يخرجون من هذه الحفلات بخسائر مالية بسبب قلة الجمهور.

ثم جاءت نقطة تحول قدرية في 2010.

في هذا العام دب اليأس في أعضاء الفريق، ودون اتفاق مسبق، بدا وأن اللحمة تفككت، هناك من انخرط في العمل بعيدًا عن الموسيقا، وهناك من سافر، وهناك من بدأ يلعب مزيكا مع فرق أخرى، حتى أمير عيد نفسه انتقل للعمل في قناة تليفزيونية خاصة، وأصابه إحباط بسبب رؤيته لطريقة إدارة القناة من الداخل، ومدى سيطرة أجهزة الدولة على اختيارات القناة في الضيوف وما إلى ذلك.

ذات يوم متأثرًا بما يراه في الشارع من إحباط، وما رأه في القناة ومن دخوله في حالة عزلة طويلة امتدت لعامين تقريبًا، كتب أمير عيد أغنية بعنوان "ساكتين" يقول مطلعها (وبعدين يا بلد/ آخر ده كله إيه/ خلاص اليأس اتولد/ ومش عارفين بكرة فيه إيه/ ساكتين ساكتين ومكملين/ بنوطي راسنا عاملين مش شايفين).

سمع شريف صديق أمير الكلمات، ووضعوا لها معًا لحنًا، ثم ظهرت على يوتيوب في 19 يناير 2011، لتحقق 29 ألف مشاهدة في زمن قياسي، وكان هذا رقمًا مذهلًا، ذلك أن أفضل أغاني الفريق "حلمي" حققت ثلاثة آلاف مشاهدة في أربع سنوات.

لكن العاصفة لم تكن قد حلت بعد.

في 25 يناير نزل أمير عيد مع آلاف إلى الميادين، كان حينها ذا وزن زائد يتخطى المائة كيلو، ووجد نفسه فجأة متورطًا في معركة عنيفة مع مخبرين وأمناء شرطة، نجى بمعجزة من الاعتقال يومها، لكن علامات الضرب على وجهه كانت ظاهرة، ولما عاد إلى منزله استقبلته أمه ملتاعة، لكنها عاتبته في ذات الوقت أنه استسلم لهم حتى ضربوه، في يوم 28 يناير، حينما أمير كان يجلس في بيته متوترًا غير قادر على اتخاذ القرار، اقتربت

منه والدته وربتت على كتفه قائلة في حسم وحنان غريب: انزل هات حقك.

في الأغلب فإن نزول أمير عيد يومها غير من مستقبله ومستقبل الغناء الجماعي في مصر بشكل عام. إذ إن مشاركتها في فعاليات الثورة خلال أيامها التالية، جعلته يوم 10 فبراير يطلق مع مجموعة من أصدقائه (من بينهم هاني عادل نجم فريق وسط البلد الراسخ)، الأغنية التي صارت أغنية الثورة بالفعل (صوت الحرية) كتبها أمير، ثم صورها بكاميراتهم، ونشروها على يوتيوب لأول مرة يوم 10 فبراير 2011، في اليوم التالي سقط مبارك رسميًا، وحققت الأغنية 80 ألف مشاهدة بين ليلة وضحاها وكان هذا رقم غير مسبوق، ورغم أن الأغنية لم تكن لـ «كايروكي" التي كادت تتفكك بالفعل، إلا أن كلمات وصوت أمير عيد نسبتها للفريق لاحقًا.

يستعرض الكتاب بالتفصيل كواليس إنسانية مثيرة للتفكير بالفعل عن أعضاء الفريق وفيما يتعلق لطريقتهم في التعامل معًا، فأمير عيد مثلًا بسبب تعرضه للسخرية من وزنه الزائد خاض جراحة لتخفيض وزنه خمسة وعشرين كيلو جرام، لكن العملية أدت لأن يفقد أربعين كيلو دفعة واحدة، ثم تزايدت لديه لاحقًا كراهيته للطعام، فانخفض وزنه بشكل لافت للنظر. أمير رغم كل هذا الصخب في أغانيه، إلا أنه انطوائي بشكل عام، ولديه شعور بتأنيب الضمير بسبب انقطاعه عن التواصل مع والده المنفصل عن والدته، حتى اكتشفوا وفاته في شقته وحيدًا بعد الواقعة بيومين. ثم أنه حاليا يعيش أزمة لا تقل عمقًا بسبب سقوط والدته في دوامة مرض الزهايمر اللعين.

ينطلق الكتاب من مصاحبة كايروكي وهم يستعدون لإطلاق ألبومهم الأهم في مسيرتهم "نقطة بيضا"، وهو الألبوم الذي كاد ينهي على الفرقة فعليًا؛ لأنه واجه مشكلات رقابية ضخمة، انتهت برفض الرقابة لإصدار الألبوم، قبل أن توافق على تمرير بعض أغنياته فقط، وهو ما دفع كايروكي لاتخاذ قرار بتصوير كل أغاني الألبوم وبثها على يوتيوب مرة واحدة، القرار السابق واجه خلافات وانقسامات حادة داخل الفريق، خوفًا من ردة الفعل

الرسمي، لكن رد فعل الجمهور كان مذهلًا، حقق الألبوم عشرين ألف مشاهدة في أول ساعتين من طرحه. بعد ثلاث أشهر، تضاعف هذا العدد ليصل إلى مائة مليون مشاهدة!

وعندما نظم الفريق أول حفلاته في ساقية الصاوي بعد صدور الألبوم بشهر، اضطروا لتنظيم ست حفلات في ثلاثة أيام متتالية، وحضر كل حفلة ثلاثة آلاف مشاهد هم السعة الإجمالية لمسرح الساقية، وهو أمر دفعهم بعد ذلك أن يطمعوا لتحقيق حلمهم بعمل حفلي "كايروكي امباير"، وهي حفلة قاموا بتنظيمها من الألف للياء في مسرح يسع عشرين ألف شخص، اشتروا تذاكر الحفل كلها في عشرة أيام فقط، ليصبح ذلك الحفل– الذي تأجل لأسباب أمنية وسياسية لأكثر من ستة أشهر– واحد من أكبر الحفلات الغنائية التي حضرها جمهور في مصر على امتداد سنين طويلة.

ربما يكون هذا الحفل هو أحد أهم أسباب إنقاذ كايروكي من فتنة التفكك التي دبت بينهم عقب انقسامهم في طريقة التعامل مع أزمة منع أغانيهم، رغم أنهم دومًا يرفضون أن ينظر لهم من وجهة نظر سياسية، ويفضلون أن يتم التعامل معهم باعتبارهم يعبرون عن جيل بكل ما فيه من تمرد ورغبة في التأثير والتغيير.

ورغم ثراء الكتاب وتجربته، يمكن الإشارة لعدة ملاحظات منها أن الكتاب ينطلق من قناعة مفادها أن كل من سيقتنيه هو من جمهور كايروكي بالأساس، ليس الجمهور العادي المتابع فحسب، وإنما "المهاويس" والأولتراس، وعليه تجاهل الكتاب مثلًا– رغم أنه بشكل أو بآخر كتاب تأريخي– توثيق أسماء الفريق أو التعريف بهم وبأدوارهم في أول الكتاب، الأمر الذي قد يشكل صعوبة للقارئ الذي لا يعرف كايروكي جيدًا في متابعة الأحداث والتفاصيل المتلاحقة وربطها بأصحابها بشكل سهل، وهو الأمر ذاته المتعلق بالعديد من المصطلحات الموسيقية المتخصصة التي لم يهتم بشرحها إلا بعد مرور أكثر من مائة صفحة كاملة، كما يبدو غريبًا أن

كتاب بهذا الحجم يخلو تمامًا من أي صورة لكايروكي، رغم أن مؤلف الكتاب صاحبهم في لحظات حصرية ونادرة كان ينبغي توثيقها.

ورغم أن طريقة سرد الكتاب تبقى حق أصيل لمؤلفه بطبيعة الحال، إلا أن تعمد "ولاء كمال" اللجوء لمنهج المزج بين ما هو "شخصي" مع سيرة كايروكي، افقد الكتاب جزءًا من حيويته قليلًا. صحيح أن المؤلف جزء من جمهور كايروكي وبالتالي هو يعبر عن هذا الجيل بشكل أو بآخر، وبكل ما يشغله من أسئلة وهواجس وآمال وطموحات، إلا أن ذلك المنهج السردي كان عبئًا على الكتاب في عدة مواضع، لا سيما وأن الربط بين تجربة المؤلف سواء فيما يتعلق بالكتابة أو بحياته، وبين سيرة كايروكي جاء قسريًا وغير انسيابي بعض الشيء.

وهو الأمر ذاته الذي تكرر في "الجزء النظري" الذي يحتل نحو 20% من صفحات الكتاب، وهو الجزء المتعلق بتأصيل الحركات الموسيقية في العالم أو ما تعكسه الموسيقا من "هوية" وعلاقة ذلك بنظريات التاريخ والفلسفة وما إلى ذلك، جاء بدوره ثقيلًا على إيقاع الكتاب، خاصة وأنه جاء في شكل فصول مستقلة كاملة، ولم يتسلل في ثنايا تفاصيل يوميات المعايشة مع كايروكي، ويبدو أن المؤلف كان يستشعر ذلك الثقل بالفعل لكن لم يستطع مقاومته، حتى إنه سمى أحد هذه الفصول –ساخرًا بطبيعة الحال– "تاريخ موجز للعالم".

يروى أيامي مع كايروكي، قصة جيل حاول أن يغير العالم بالفعل (كما يقول العنوان الفرعي للكتاب) ليس عبر نزوله للميادين والهتاف بالحرية فحسب، إنما عبر ما صنعه من ثورة في الفن والأغنية والموسيقا وكل ما يعبر عن رغبتهم في الحياة، وهو أمر صنع "كيمياء سحرية" بين أبناء هذا الجيل، حتى باتوا يعرفون أنفسهم بنظرة أو باستدعاء ذكرى أو بكلمات؛ ليكتشفوا أن ما يجمعهم أكبر بكثير من مجرد أعمار أو أرقام أو أحلام وانكسارات منكسرة. جيل تشكل وعيه حتمًا قبل 2011 بكثير، لكنه

وجد نفسه وروحه الغائبة في 25 يناير، ويبدو أن الرحلة التي بدأت في قلب الميدان، لم تصل محطتها الأخيرة بعد، وأكبر دليل على هذا هو ذلك الصوت الهادر الذي يصاحب ذلك الفريق الاستثنائي في تاريخ الموسيقا المصرية المعاصرة عندما يصعد أعضاؤه على المسرح، صوت يدوي قائلًا: كايروكي.. كايروكي.

هل تكون نادية مراد هي الفتاة الأخيرة حقًا؟

هذا أكثر الكتب رعبًا التي يمكن أن يقرأها المرء في حياته على الإطلاق. الرعب هنا ليس نابعًا من براعة في القدرة على التعبير أو حشد المواقف المثيرة أو التفاعل الكامل مع السطور حتى لتخال أنك متورطًا فيما يجري.

الرعب، هو أن كل ما تقرأه قد حدث بالفعل.

والأكثر رعبًا، أنه جرى إلى جوارنا، (في العراق)، وإنه تم وفقًا لتفسير شيطاني للإسلام.

في هذا الكتاب المذهل (الفتاة الأخيرة)– الصادر بترجمة قديرة آسرة لنادين نصر الله عن دار التنوير–، تروي الفتاة الإيزيدية "نادية مراد"– التي ستفوز لاحقًا بجائزة نوبل للسلام عام 2018–، معركتها مع تنظيم داعش، ورحلة فرارها المرعبة من الأسر، حيث تحولت إلى واحدة من السبايا التي يتم بيعها واغتصابها بكل أريحية خسيسة ويقين منحط بين إرهابي التنظيم، بل والمواطنين العاديين المتعايشين معهم، وعندما يقرأ المرء السطور بكل ما تحمله من مرارة ورعب ودماء مسفوكة وأعراض منتهكة، وإنسانية معذبة، تتصاعد دقات قلبه في فزع، ويشهق العديد من المرات، ويضع يده على فمه ليمنعه من الصراخ، بل وفي أحيانًا يغمض عينيه لثوانٍ لعله يحاول ألا يرى ما يقرأه من أهوال متجسدًا أمام عينيه، لكنه لا ينجح في ذلك بكل تأكيد.

الكتاب، كابوسي بامتياز، لكنه إنساني وهش بدرجة لا يمكن وصفها.

ومع التسليم بأنه لا نهايات سعيدة في مثل هذه الكتب الواقعية، إلا أنه ورغم كل الوجع والألم المفجع الذي يغلفه، فإنه واحد من أكثر الكتب إلهامًا، وتحفيزًا على مقاومة الشر، والاستمرار في الحياة، والأمل في الانتصار ولو بعد حين.

يتجلى ذلك في المشهد التالي.

بعد تحولها إلى "سبية"، قام مالكها "الحاج سليمان"– وهو للصدمة قاض عراقي من الموصل– باغتصابها أكثر من مرة، ثم وحين قامت نادية بمحاولة هروب فاشلة من منزل آسرها، عاقبها بالضرب بالسوط على جسدها، ثم عاقبها بأن سمح لثلاثة من حراسها باغتصابها في آن واحد، ثم باعها لقاض آخر عبر وسيط، وقام هذا الوسيط باغتصابها، ثم قضت ليلة في مركز حراسة لداعش، اغتصبها فيها واحد من مراهقي التنظيم الإرهابي، ثم أخيرًا سنحت لها الفرصة بعد كل هذه الأهوال في أن تتأمل وجهها لأول مرة بعد أن تم اختطافها من قريتها الأيزيدية الآمنة "كوجو"، فوجدت في المرآة شخصًا آخر غير نادية التي تعرفها، نادية أخرى، منهكة ومنكسرة وضائعة وتائهة، نادية لا تملك أي من درجات المقاومة أو الرفض لمحاولات التناوب عليها، وهي التي كانت معروفة بين أقرأنها بأنها صاحب موقف صلب ورأي واضح وصارخ. هل هناك وقت آخر يمكن أن تسيطر فيها على المرء فكرة الانتحار ومغادرة هذه الدنيا التي سحقتها؟ خاصة وقد رأت من قبل أثر دماء فتيات إيزيدات أخريات لم يتحملن أهوال مماثلة فقطعن شرايينهن؟

تقول نادية إنها في هذه اللحظة التي كانت فيها أقرب للانتحار من أي شيء آخر، وجدت نفسها تتمسك بالحياة رغمًا عنها، ربما لأنها كانت تأمل أن تنجو بمعجزة ما، وربما لأنها أدركت أن موتها لن يغير شيئا في الكابوس الذي تعيشه هي وعشيرتها، وربما لأنها أن كانت تحلم بأن تفضح ممارسات داعش الوحشية يومًا ما، والشخص الحي وحده هو الذي يستطيع أن يفعل

ذلك، وربما لكل ما سبق، وربما فقط أردت أن تبقى على قيد الحياة؛ لأن ذلك هو الدليل الوحيد بالنسبة لها وسط هذا الجحيم بأنها لا تزال إنسانة.

ومع ذلك فإن "دعوة التمسك بالحياة" التي تبثها نادية مراد في كتابها، لا تعني مطلقًا أن الأمر كان عاديًا أو سهلًا، ذلك أن المشاهد التي تسحق القلب فزعًا تتوالى بشكل متلاحق يعجز عن كتابته أكثر كتاب أفلام الرعب مهارة.

لقد تركت نادية للتو أمها تواجه مصيرًا مرعبًا في مدرسة قريتها الكبرى وسمعت الرصاص يدوي وهو يحصد – حتمًا– أرواح أشقائها من الذكور في الساحة الخلفية للمدرسة، ثم جرى تصعيدها قسرًا مع عشرات من الفتيات الأيزيديات وتحت تهديد السلاح إلى أتوبيسات لتقلهم غالبًا إلى الموصل التي كان داعش قد سيطر عليها للتو، وباتت عاصمته في العراق.

لكن من قال أن صعود أتوبيس يسيطر عليه رجال من داعش سيكون مجرد رحلة عادية؟

لقد كان هناك أبو بطاط، لا توضح نادية هل هذا اسمه الحقيقي أم أنه الاسم الذي أطلقته عليه، هي فقط تروي عنه أنه كان رجلًا فارغ الطول في الخامسة والثلاثين من عمره، أما الدور الذي كان يقوم به في الأتوبيس خلال رحلته من جبل سنجار إلى الموصل فقد كان كالتالي: يتجول في ممر الأتوبيس ثم يطلب من الفتيات المعذبات المنهكات اللائي فقدن الأب والأخ والزوج منذ دقائق رميًا بالرصاص، أن يبتسمن ليلتقط لهن صورة بهاتفه، ثم يضحك وهو يتأمل الصورة، قبل أن يبدأ المرحلة الثانية الأكثر فجرًا، يلمس هذه، وعيناه الخضراوان تلمعان، وفمه يلتوي بابتسامة ماكرة، أغمضت عيني، أتضرع لربي أن يجعله يرحل عني، ثم شعرت بيده تنتقل ببطء عبر كتفي فتلمس عنقي ثم تنزل إلى مقدمة فستاني حتى تتوقف على نهدي الأيسر، كان إحساسي كما سهام من النار، لم يسبق لأن لمسني أحد

هكذا من قبل".

لكن أبو بطاط لم يفعل ذلك مع نادية وغيرها مرة واحدة، بل فعل ذلك مرات عدة طول رحلة الاتوبيس، وتصف نادية تلك اللحظة المرعبة التي يظهر فيها ذلك الداعشي وقد بدأ جولته الشاذة، وحينها لم تكن تملك سوى أن تغمض عيناها وأن تدعو الله أن يعمي بصره عنها فيمر من جوارها دون أن يمد يده ليطول جسدها، تخيل هذه الثواني التي تكون فيها نادية مغمضة العينين وحفيف جلباب الوحش الداعشي يمر بجوارها، تسمع أنفاسه اللاهثة، ووقع طرقات حذائه، والأصوات المشوشة المتبادلة عبر جهاز اللاسلكي الذي يحمله، تترقب هل سيمد يده هذه المرة أم سيعبرها إلى فريسة أخرى؟ ترى كم عمر هذه اللحظة؟ ألف سنة؟ ربما أكثر.

على أن فصول الجحيم لا تتوقف مطلقًا لنادية ورفقتها من أبناء قرية كوجو.

في اليوم التالي مباشرة لوصولهم إلى ما يبدو أن مركزًا قياديًا لداعش في الموصل، وهو عبارة عن قصر لأحد أثرياء المدينة العراقية وقد احتلوه قسرًا عقب فرض سيطرتهم، جرت وقع بيع نادية ورفقتها، الأمر كان بسيطًا بدرجة تثير التقزز. يدخل قادة داعش أو كبار رجال الموصل المتعاونين مع التنظيم ليلقوا نظرة على "البضاعة"، قد يختار أحدهم فتاة صغيرة السن بلغت للتو، أو أخرى لم تبلغ وهو مدرك أنه لن يقيم معها علاقة كاملة مكتفيًا فقط بـ «الاستمتاع" بها، وقد يختار ثالث العذراوات وأخرى تروق له المتزوجة– أو الأرملة على وجه الدقة– ملتزمًا في ذات الوقت بالانتظار أربعين يومًا قبل مواقعتها تطبيقًا لـ «شرع الله" كما يفسرون هم الأمر!

كغيرها من باقي الفتيات الأسيرات حاولت نادية أن تقاوم مسألة بيعها بعدة دولارات، بالصراخ والمقاومة، وعدم الاستحمام، ومحاولة التقيؤ عمدًا لتنفر "الزبون"، لكن كل ذلك لم يجد نفعًا، جاء حظها كواحدة

من "سبايا"، سلوان، وهو – كما تصفه– واحد من أكثر الرجال ضخامة الذين رأتهم في حياتها. فظ وعنيف وتعامل معها بوحشية وهو يشتريها، كانت تتخيل مصيرها أسفل هذا الجسد الضخم الغليظ، فتكاد تموت رعبًا، فقاومت، وألقت بنفسها أسفل قدم رجل/ مشتري، بدا أنه من أهل الموصل، لكنه ذو هيئة تبدو أقل شراسة من سلوان، وتوسلت إليه أن يشتريها هو بدلًا من القيادي الداعشي (هل تدرك أي هوان إنساني كانت فيه نادية في هذه اللحظة التي تسحق آدميتها؟)، لدهشتها، وافق الرجل، بينما توعدها سلوان، قائلًا بأنها ستكون من نصيبه حتمًا يومًا آخر، أما "مالكها الجديد" فقد قال اسمها للشخص المسئول عن تدوين عملية البيع والشراء (نادية، الحاج سليمان)، تقول نادية "وعندما ذكر اسم آسري، خلتني أشعر بصوت المسلح– الذي يدون الأسماء– يرتعش قليلًا، كما لو كان خائفًا، فتساءلت إن كنت قد ارتكبت خطأً جسيمًا". والأغلب أن نادية لم تكن تدرك حينها أن كل ما يمكن أن يفعله المرء وهو أسير لدى داعش، لا بد أن يكون خطأً جسيمًا.

المدهش أن هذا الخطأ الجسيم، كان باب الخروج من الجحيم لاحقًا، صحيح أن الثمن كان مروعًا، لكن نادية نجت، وكلمة النجاة هنا مجازية بطبيعة الحال. للدقة هي هربت، لكن مسألة نجاتها كلية أمر يصعب حسمه.

رحلة هروب نادية من جحيم داعش تستحوذ على الثلث الأخير من الكتاب، وهي رحلة تحبس الانفاس بحق، فحينما اشتراها الحاج عامر من الحاج سلمان، ذهب ليشتري لها ملابس تليق بـ «زواجه– اغتصابه" لها، كما كان يؤهلها للانتقال إلى سوريا، وهو أمر كان يمثل لنادية رعبًا حقيقيًا، ذلك أنه انتقالها لسوريا كان يعني عمليًا موت أي أمل في الهرب، عندما خرج مالك نادية الجديد من منزله الفخم في الموصل، فوجئت نادية بأنه ترك باب المنزل دون أن يوصده، لم يكن هناك حارس واحد، لم يكن هناك داعشي واحد يتحرك في الشارع المقابل، كان آذان المغرب يتردد في

الأفاق، والشوارع تميل للظلام، بدا وكأن "يدا إلهية" تمتد لتنقذها.

لكن الخروج من بيت "داعشي" في قلب الموصل عام 2017 لا يعني النجاة مطلقًا. أدركت هي هذه الحقيقة وكان عليها أن تطرق باب أي من منازل الموصل وتطلب المساعدة، لكن من يضمن ألا يكون ساكنو هذا البيت من المتعاطفين مع داعش أو المرعوبين منهم؟ لا بديل في كل الأحوال، تهم بأن تطرق باب أحد المنازل، لكن تتراجع في اللحظة الأخيرة، ثم تقرر أن تطرق باب منزل آخر، من كان يسكن الباب الأول؟ هل كان سيتغير مصيرها لو طرقت بابه بالفعل؟ لا أحد يعلم، ما نعلمه أن المنزل الثاني كانت تسكنه أسرة مسلمة "سنية"(المصطلح ضروري للأسف وفقًا لطبيعة التقسيم الطائفي في العراق)، وأن الابن الشاب ناصر ذا الخمسة وعشرين من عمره، سيخوض مع نادية رحلة من الموصل إلى كركوك وهم يحملون أوراقًا مزورة للعبور من أكمنة داعش، وأنهم كادوا يتعرضون للقبض عليهم والموت أكثر من مرة في رحلتهم هذه، وإنه حينما وصلت أخيرًا إلى كركوك ومنها إلى أربيل (الخاضعة لسيطرة كردية)، كان عليها أن تلتقي أخيها "صباح" الذي يحارب في صفوف الأكراد، وكان عليها بعد ذلك أن تخبره بكل ما حدث لها في الموصل، وهي مهمة – في مجتمع محافظ وتقليدي مثل الإيزيديين– لم تكن سهلة مطلقًا.

المثير، أن ناصر لأسباب عدة– من بينها ألا يشك داعش في أسرته–، كان مضطرًا بعد تهريب نادية أن يعود إلى الموصل، ولفترة ظلت الاتصالات بينه وبين نادية وصباح قائمة، ثم في إحدى المرات اتصل به صباح فجاءه صوت رتيب يخبره بأن هذا الرقم "غير موجود بالخدمة"، حاولت نادية أن تتحرى أمره، خصوصًا مع انطلاق معركة تحرير الموصل واستخدام داعش المدنيين كدروع بشرية، فلم تصل إلى أي معلومة دقيقة عنه أو عن أسرته التي خاطرت بحمايتها وإبقائها في منزله لعدة أيام وتهريبها إلى خارج جحيم داعش، كل ما وصلت إليه نادية إلى أن منزل أسرة ناصر كان في الجانب

الشرقي من الموصل وهو الجانب الذي شهد معارك طاحنة بين الجيش العراقي وداعش، وفي الأغلب لم يبق هناك منزل واحد قائمًا. مؤلم جدًا أن يكون مصير ناصر "المسلم الفطري البسيط"، الذي ساعد في إنقاذ حياة نادية قد لقي حتفه في معركة تحرير مدينته، بينما الحاج سليمان "الداعشي الوحشي"، أول من اغتصب نادية، واشتراها، وباعها، وعذبها، وحرض حراسها على اغتصابها، قد نجى.

في شتاء 2016، سافرت نادية مراد من ألمانيا– حيث تعيش الآن– إلى نيويورك لتلقي كلمة عن قصتها أمام الأمم المتحدة، تقول " قدمت خطابي الموجز، واصلت الكلام، قلت لهم لم أولد لألقي خطابات، إن كل إيزيدي يريد أن يحاكم تنظيم داعش على ارتكابه إبادة جماعية، إنني أريد أن نظر في عيون الرجال الذين اغتصبوني وأراهم يساقون أمام قوس المحكمة، والأهم أعلنت أمام الملأ أنني أريد أن أكون الفتاة الأخيرة في العالم التي تحمل في قلبها قصة مثل قصتي. الفتاة الأخيرة". لم تقل نادية كيف كان رد الحضور في الأمم المتحدة بعد كلمتها هذه، الأكيد أن القاعة ضجت بالتصفيق الحار، لكن أحدًا لم يجرؤ بأن يقول لها بأنها فعلًا ستكون الفتاة الأخيرة.

"جابو" صحفيا.. دليل "ماركيز" لأجمل مهنة في العالم

ما الذي يجعلك تقرأ بحماس عن مقاومات الحصار في كوبا، أو المؤامرة الشعبية التي أطاحت بالحكم الديكتاتوري في فنزويلا، أو الثورة المضادة في تشيلي، أو كيف استعادت بنما قناتها البحرية الشهيرة من قبضة الأمريكان، أو عن مغامرات النضال الثوري في أحراش الكونغو؟

قد تحتاج لأسباب كثيرة حتى تفعل ذلك أو تفسره، لكن إذا ارتبط كل ما سبق باسم "جابريل جارسيا ماركيز" فأنت حتمًا لا تحتاج إلى أي تبريرات.

ماركيز نفسه هو من الأسماء التي لا تحتاج إلى شرح أو تبرير، هو بذاته علم متفرد، واسمه يحمل إيقاعًا ورنينًا وألقًا خالدًا في عالم الأدب العالمي. حسنا. كيف سيكون الأمر إذن حينما نقرأ ما كتبه "جابو" الصحفي هذه المرة وليس الروائي الفذ العابر للزمن؟

ثمة متعة استثنائية تنتظرك.

القارئ هنا يفوز بالحسنيين، قلم روائي مترامي الموهبة عصي على الاحتواء. وعين صحفي ناقدة وذكية وتتمتع بحس استقصائي نافذ بعمق، هذا هو "جابو" الصحفي.

من المدهش أن يكون كتاب "بلا قيود– المقالات الصحفية 1974– 1995" – دار الفارابي– بيروت، هو أول ترجمة عربية لكنوز ماركيز الصحفية، وهي مبادرة حميدة وشجاعة أقدمت عليها المترجمتين "د.هبة

العطار وجيهان حامد"، خاصة فيما يتعلق بطبيعة المقالات التي تم انتقاؤها للترجمة من بين أرشيف صحفي ضخم لجابو تتنوع موضوعاته وتتوزع أماكن نشره في كبرى صحف أمريكا اللاتينية وإسبانيا وبعض الصحف الفرنسية أيضًا.

معروف عن ماركيز أنه وصف الصحافة بأنها "أجمل مهنة في الدنيا"، وعبر صفحات هذا الكتاب الممتع يتضح أن ماركيز لم يطلق هذه الجملة مجازًا، وإنما كان هو نفسه أول من فتن بجمال هذه المهنة الساحرة. بدأ "جابو" الكتابة صحفيًا باسم مستعار حتى إنه نشر خلال الفترة ما بين 1950 –1952 نحو أربعمائة مقالًا باسم "سبتميوس"، قبل أن ينشر لاحقًا باسمه، ومثلما تميز أدبه بحس ساخر وأسلوب أخاذ، فإنه بجانب احتفاظه بأسلوبه الروائي الشيق في الكتابة الصحفية، فقد عرف عنها بميله إلى استخدام عنصر الـ counter– information أو "المعلومة المضادة" وهو المنهج الذي كان يتحدى به "الروايات الرسمية للحقائق"، وتجلى هذا في قصته الصحافية الروائية البديعة "بحار السفينة المحطمة" التي نشرها مسلسلة عام 1955 في صحيفة الاسبيكتادور الكولومبية المسائية، وهي الرواية التي فضحت ادعاء الحكومة العسكرية التي تحكم البلاد آنذاك، حول غرق سفينة عسكرية بسبب عاصفة، إذ أجرى ماركيز حوارًا مع البحار الناجي الوحيد من الحادث، والذي أخبره في سياق الحديث بأنه السفينة كانت تحمل أثقالًا أكبر مما تتحمل، وأن هذه الأثقال كانت أدوات كهربائية، وهو أمر حاولت الحكومة اخفاءه؛ لأن القانون يجرم نقل بضائع استهلاكية على متن سفن بحرية. تسبب نشر رواية ماركيز في إغلاق الصحيفة لفترة، وإبعاده عن كولومبيا ليعمل مراسلًا صحفيا من أوروبا، لكن بعد عامين فقط من نشره لروايته الصحفية هذه، أطيح بالحاكم المستبد "جوستابو روخاس" من الحكم عبر ثورة شعبية. هل كان ماركيز الصحفي سببًا في ذلك؟ الأكيد أنه كان مسمارًا كبيرًا في النعش الذي دفن فيه الحاكم الديكتاتوري أحلامه.

في المقالات الصحفية المنشورة في كتاب "بلا قيود" يبدو ماركيز منحازًا انحيازًا مطلقًا وقطعيًا للثورة الكوبية وزعيمها "كاسترو" حتى إن المرء يستشعر مبالغات في وصفه لمباهج الحياة في كوبا تحت الحصار الذي دام لعقود، يقول ماركيز في مقال بعنوان لافت: "إن كنتم لا تصدقوني، فلتتحققوا بأنفسكم"، "سيداتي وسادتي الحقيقة المجردة هي أن كوبا الآن ليس فيها عاطل واحد أو طفل لا يذهب إلى مدرسة أو إنسان حاف أو بلا مأوى أو بلا قوت يكفي وجباته الثلاث يوميًا، كما أنه ليس فيها شحاذ أو أمي أو مواطن أي كان عمره غير ملتحق بالتعليم المجاني بجميع مراحله كما لا يوجد فيها فرد واحد لا يتمتع بتأمين صحي، كما أنه ليس فيها حالة واحدة من ملاريا أو تيتانوس أو شلل أطفال أو جدري وليس فيها دعارة أو ركود أو سرقة أو محسوبية أو قمع شرطي، وليس فيها مواطن لا يتمتع بحق الاحتجاج " حماس زائد كما ترى. هو هنا يتحدث عن بلد خيالي غير موجود على سطح الكرة الأرضية، اللافت أنه يتحدث بجدية رغم العنوان الذي يحمل حسًا ساخرًا، وأنه كتب ذلك عام 1975، اي بعد ستة عشر عامًا تقريبًا من الثورة والحصار، ورغم هذه المقدمة "النارية" شديدة الانحياز، إلا أنه عاد من جديد في ثنايا المقال ليرصد التداعيات الصعبة للحصار، وكيف أن الصحافة تعاني في كوبا حتى إنه وصف كاسترو بأنه "المراسل الصحفي الرائع" كونه يمد الكوبيين بكل ما يريدون أن يعرفوه من أخبار عن بلادهم وعن أنفسهم وعن العالم بأسره، ورغم أن الصيغة احتفائية وعلاقة الصداقة بين الرجلين "كاسترو– ماركيز" قوية ومتينة، فالأمر يحمل سخرية ضمنية تحتمل التفكير في نيات "جابو" عندما صك هذا المصطلح.

انحياز ماركيز لكاسترو تجلى في أنه دافع عن "اللجان الثورية" التي دعا كاسترو إلى تشكيلها، واعتبر كاسترو أن هذه اللجان هدفها "إنشاء نظام مراقبة ثوري جماعي للتنبيه بوجود خونة ومندسين بيننا". ينظر جابو إلى هذه اللجان بتقدير رغم أنها "هددت الحياة الخاصة للمواطنين إلا أن الزمن والخبرة المبنية على الممارسة كانا كفيليين بإعادة الأمور إلى نصابها"

ويرجع إليها الفضل في محو الأمية ومحاربة الفقر، يبدو واضحًا أن ماركيز كان يقدر وبشدة الطرق المبتكرة التي اخترعها الكوبيون من أجل التغلب على نقص احتياجاتهم الأساسية بفعل الحصار، حتى إنهم اضطروا إلى اختراع بديل للأسبرين وللمخدر خلال العمليات الجراحية كما كانوا يعمدون إلى تطهير القفازات البلاستيكية لإعادة استخدامها في مهام الأطباء أكثر من مرة. هو كان معجبًا بالصمود في وجه أمريكا والانتصار للثورة الكوبية ومنهجها مهما كان ثمن ذلك، منحازًا– حتى وهو يكتب عن أهمية التصالح مع عصابات المخدرات في بلاده إذا كان ذلك سيؤدي إلى التخلص من إرث الموت المتتالي بين العصابات والدولة والصحافة والقضاء– إلى أن يعيش الإنسان آمنا في موطنه، يقول: "يمكن أن نعتاد التعايش مع الخوف من الماضي ولكن لا يمكن أن نتعايش مع الخوف مما قد يحدث مستقبلًا".

أكثر ما يميز إنتاج ماركيز الصحفي هي تلك العين التي تلتقط تفاصيل ما وراء الحدث الكبير، فها هو حينما يكتب عن البرتغال وهي تعيش ذروة انتصارات "ثورة القرنفل" والإطاحة بالحكم العسكري عام 1974، لا يهتم برصد التفاعلات السياسية والاجتماعية فحسب، وإنما يلتقط تفصيلية صغيرة تتعلق بالحرية واندفاع أهل البرتغال إليها في شتى صورها، حتى إنهم "ولأول مرة سمحوا بعرض الأفلام الجنسية في دور السينما بحجة أن الحرية يجبر أن تشمل كل شيء، فما كان من الآلاف الإسبان من ذوى الانتماءات السياسية المبهمة إلا الاندفاع عبر الحدود نحو البرتغال إقبالًا على تلك الأفلام قبل أن يعودا لعبور الحدود يوم الاثنين بوجوه منهكة من النشوة وصوت حالهم يقول: اللعنة، ما هذه الروعة لا بد أن هذا لن يدوم"، لكنه وهو يرصد ذلك التحول المجتمعي الكبير، رصد أيضا التحول الكبير في طبيعة وبنيان الجيش البرتغالي إذ إنه على حد وصفه أصبح "الضباط والجنود يتعاملون بلا تكلف ويتقاسمون غرف النوم والطعام، وللمرة الأولى في تاريخ الإنسانية صار للجيش حق عدم الامتثال للأوامر إن لم يشرح الضباط الهدف منها". لم تدم تلك "اليوتوبيا" كثيرا في البرتغال بطبيعة

الحال، وهو ما يبدو عليه مقال ماركيز من رصده لمناطق فساد قد تؤجل تحقيق أهداف الثورة في البرتغال، وهو أمر ربما لا تزال البرتغال تعاني منه حتى يومنا هذا.

يبرز كتاب "بلا قيود" أيضًا جانبًا ساحرًا في إنتاج ماركيز الصحفي، فيما يتعلق بكتابته عن الشخصيات، ففي مقال قصير وبديع بعنوان "من مذكراتي: زيارة البابا"، يصف تفاصيل لقائه الذي لم يزد عن عشر دقائق فحسب مع البابا يوحنا بولس الثاني عام 1978، كان البابا قد وصل إلى منصبه الديني البارز عقب وفاة مفاجئة للبابا يوحنا بولس الأول الذي لم يجلس على مقعد الباباوية سوى أربعة وثلاثين يومًا فقط، وأراد ماركيز أن يقدم للبابا الجديد قائمة بأسماء نحو عشرة آلاف مواطن أرجنتيني في عداد المفقودين خلال سنوات الحكم العسكري ليمنح حملة في بلادهم تدعو للبحث عنهم دفعة روحية كبيرة، بحسه الساخر الساحر يروى ماركيز كيف أن أول خمس دقائق في اللقاء انتهت في حديث يتعلق بأي لغة يحب أن يتحدث بها مع البابا، الذي كان يجيد الإيطالية والفرنسية، ويتطلع لإجادة الإسبانية، فاختار ماركيز الأخيرة قائلا للبابا: "لن تكون فكرة سيئة أن أكتب في مذكراتي أنني قد أعطيت البابا درسًا في اللغة الإسبانية"، ثم يروي كيف أن البابا حينما اطلع على المذكرة الخاصة بالمفقودين والمكتوبة بالفرنسية قرأها وهو يقول :"آه.. وي– آه.. وي"، قبل أن يعيد الرسالة إلى ماركيز في ابتسامة شبه ماكرة وهو يقول له "يذكرني الأمر بأوروبا الشرقية"، هم ماركيز بالحديث، لكنه انتبه إلى أن زرًا معدنيًا من بدلته قد سقط أرضًا، وقد أخذ انتباه البابا وهو يتدحرج، حرص ماركيز أن ينحني في سرعة ليلتقط الزر حتى لا يفعل ذلك البابا بنفسه، وعندما عاد إلى مقعده كان جرس انتهاء المقابلة قد رن. يقول ماركيز: "كان يمكن لمهمتي أن تنتهي نهاية أكثر سعادة لو أن المقابلة قد امتدت خمس دقائق أخرى. في نهاية الأمر، كنا كل ما نطلبه من الباب هو مباركته للحملة، غير أن قواعد الفاتيكان لا يمكن خرقها. والمقابلة انتهت دون أن أحصل على رد".

مقالات ماركيز الصحفي درس حقيقي وممتع في المهنة، يكشف فعلًا كيف يمكن أن تصبح الصحافة هي "أجمل مهنة في الدنيا"، لكن الأمر– في الأغلب– يحتاج أن يكون الصحفي من هؤلاء قادرًا على أن يكون "جابريل جارسيا ماركيز".

الكتاب: بلا قيود "مقالات صحفية 1974– 1995".
المؤلف: جابريل جارثيا ماركيز.
الناشر: الفارابي– 2018.

زاوية أخرى: ماذا يمكن أن تقول عن ماركيز في هامش صغير؟ الموضوع صعب للغاية. في كل الأحوال ماركيز يعني الكثير من المتعة والروايات الاستثنائية في تاريخ الأدب العالمي، إذا لم تكن قد قرأت "مائة عام من العزلة"، و «خريف البطريرك"، و «ذكريات غانياتي الحزينات"، و «الحب في زمن الكوليرا"، و «ليس للكولونيل من يكاتبه". عليك أن تفعل ذلك الآن وفورًا.

لن أمنحكم كراهيتي.. الحياة بعد زلزال بقوة 9 ريختر

كيف يمكن للمرء أن يتعامل مع الحياة بشكل طبيعي بعد رحيل الأحبة؟ ربما لا يكون هذا هو السؤال الدقيق هنا عندما نتحدث عن رحيل مفجع للأحبة، المفجع هنا يقصد به رحيل درامي وفجائي ويثير اللوعة، وهل هناك أقسى من أن يرحل أقرب الناس لنا في تفجير أو عملية إرهابية مدبرة؟

أنطوان لاريس، صحفي فرنسي شاب (مواليد 1981) وجد نفسه ذات ليلة دامية عاشتها فرنسا في أواخر عام 2015، مطالبًا بأن يتعايش مع رزمة من الحقائق المرعبة. زوجته الجميلة "هيلينا مويال لاريس" قتلت برفقة 88 آخرين في حادث إطلاق رصاص إرهابي في مسرح "باتاكلان" بباريس. هو الآن ليس فقط مكلومًا ووحيدًا وحزينًا، وإنما عليه أن يتكفل كلية بتربية ابنهما الصغير الذي لم يكمل العامين، وعليه بجانب كل ما سبق أن يتعامل مع العالم باعتباره ثابتًا وطبيعيًا، ولم يتغير رغم الفاجعة التي يعيشها.

في كتابه ذي العنوان الشاعري اللافت "لن أمنحكم كراهيتي"– ترجمة صابر رمضان عن دار العربي للنشر– اختار المؤلف "لاريس" الكتابة بطريقة اليوميات، يبدأ الكتاب بفصل تحت عنوان موحي "ليلة الجحيم" وفيه سرد لمساء 13 نوفمبر 2015 حينما كان يجلس مع ابنه الصغير في شقتهم، بينما زوجته "هيلينا" تشاهد حفلًا موسيقيًا في المسرح عندما جاءه اتصالًا تليفونيًا من صديقة تسأله في خوف "مرحبا.. هل أنتم في أمان؟"، وكان هذا السؤال طريقه إلى ليلة مستوحاة من الجحيم بالفعل، وقاده في نهاية الأمر لأن يشاهد جثمان زوجته مضرجًا في دمائه على طاولة في المشرحة.

يسرد الكتاب يوميات اثنى عشر يومًا فقط في حياة أب وابنه فقدا الزوجة والأم فجأة في حادث إرهابي مروع، وتقطر كلمات الكتاب حزنًا صافيًا وصادقًا بالفعل، وتعكس عجزًا إنسانيًا كبيرًا للمؤلف، عندما اكتشف أن عليها أن يمارس دور الأب والأم مع ابنه، وأن يتماسك أمام الآخرين حتى لا يسألونه ذلك السؤال الاعتيادي المقبض "هل أنت بخير"، وأن يخفي مع كل هذه الأثقال حزنه، أو في أفضل الظروف ألا يظهر حزنه الهائل هذا أمام ابنه الصغير أو أمام الآخرين، ورغم هذا الحزن الذي يغلف الكتاب صغير الحجم عميق الأثر، إلا أن الكتاب يعطي لكل أصحاب القلوب المكلومة في أحبائها، طاقة أمل ولو صغر حجمها مفادها أن الحياة تستمر ويجب أن تظل كذلك رغم هذا الفراغ الموحش الذي يتركه رحيل الأحبة في الأرواح، ولعل المؤلف قد برع في التعبير عن هذا بوصفه لمشهد محصل الكهرباء الذي طرق باب منزله، بعد أربعة أيام فقط من وفاة زوجته، وقد جاء ليطلب من "لاريس" بكل أدب وروتينية أن يطلع على عداد الكهرباء. ربما كان هذا أكثر الاختبارات التي واجهه مؤلف الكتاب صعوبة وأكثر صدمة عقب رحيل زوجته، يقول: "أردت لو أن أخبره أنه أتى في ظرف غير مناسب وأنه غير مرحب به في هذا الوقت، فمجيئه يمثل صرخة في أذني أن الحياة في الخارج استأنفت حركتها، لكنني لم يكن لدي رغبة في سماع ذلك". لقد وضع محصل الكهرباء "لاريس" أمام أصعب الحقائق: الحياة تستمر عقب رحيل من نحب، وعلينا أن نستمر بدورنا في الحياة.

محاطًا بتعاطف لا حد له من الجميع لا سيما بعد ما نشر على فيس بوك رسالته الشهيرة لقتلة زوجته "لن أمنحكم كراهيتي"، يبدأ "لاريس" رحلته الصعبة، ربما المستحيلة، أن يتعامل مع ابنه الصغير بوصفه "أمه"، ليجد "لاريس" نفسه متورطًا في اختبار نفسي صعب، قد يبدو من خارجه بسيطًا وصغيرًا بينما في تفصيله يحمل معنى الأمومة، أن يقص أظافر ابنه "ميلفيل" دون أن يصيبه بضرر. مهمة أثارت شجونه وتوتره خاصة بعد ظن أنه تسبب في إصابة ابنه بالفعل، مهمة ستجعله يسترسل في أفكاره الحزينة

التي لا تنتهي "في الوقت الذي يتخيل فيه الجميع أنني سوبر بابا هن يعرفن جيدًا أنني أب عادي جدًا".

اختبار قص الأظافر تبعه اختبار لا يقل صعوبة هو استحمام "مليفيل" اليومي، الاختبار هنا ليس فقط في تحقيق بذلك بنجاح دون كوارث، وإنما في التعايش مع الذكريات التي تأتي خلال قيامهم بذلك "كنا نلعب ونغني ونتعانق ونتراشق بالماء ونضحك، أما اليوم فنتظاهر بالضحك، وكأن الأمور يمكن أن تسير على ما يرام بدونها، وأحيانا انتظرها وأقول أنها ستدفع باب الحمام وتدخل علينا ونغني معًا حان وقت الخروج"

في الحضانة يرى "لاريس" كيف تتعاطف الأمهات مع ابنه الصغير، وكيف اتفقن فيما بينهن على جدول يومي طوال الأسبوع تتولى فيه كل واحدة منهن إعداد الطعام للطفل الصغير. المفاجأة التي لم يخبرها "لاريس" لأحد قط أن طفله لم يكن يتذوق هذا الطعام قط، بدا وكأنه يبحث عن طعام أمه دون أن يعثر عليه، لكن أثر هذه الوجبات وصل في كل الأحوال "هذه الوجبات رغم أنه لا يأكلها بل كنت أرصها رصًا على البوفيه، كانت تغذي قلوبنا بحنان وعاطفة الأمومة الذي كنا نفتقده"

يمضي الوقت إذن، لكن الحزن راسخًا في قلب لاريس لا يتحرك، صحيح أنه كتب على الفيسبوك وبعد يومين فقط من مقتل زوجته رسالة تحمل في طياتها روح المقاومة يقول فيها للقتلة "من المؤكد أن الحزن يدمرني، أعترف لكم بهذا النصر التافه، نحن اثنان أنا وابني لكننا أقوى من كل جيوش العالم ليس لدي المزيد من الوقت لكم، سيتناول وجبته كما تعود كل يوم، سنلعب معًا كما تعودنا كل يوم، هذا الطفل سيتحداكم بأن يعيش سعيدًا وحرًا طوال حياته ولن يمنحكم حقده أبدًا"، لكن "لاريس" كان يدرك جيدًا أنه وحيدًا جدًا وحزينًا جدًا، وأن أوجاعه لا تتوقف عن النمو، ولعل هذا يتجلى في ذلك التشبيه القوي الذي استخدمه ليعبر عن أحزانه باعتباره زلزلًا تدمر تداعيات نحو ألف كيلو متر في محيطه، يقول: "الجميع يريد

أن يقابلني أن يتحدث إليَّ، أن يلمسني، وكأنني تميمية أصبحوا يقيمونني، يقسيونني، يزنونيي، وكأن معهم مقياس ريختر ولكن من النوع الذي يقيس شدة الحزن لأنهم على قناة تامة أنهم في حديثهم معي كأنهم يواجهون زلزلًا شديدًا، تلك الهزة الأرضية التي لا تحدث إلا كل خمس مرات كل مائة سنة، تبلغ شدتها على مقياس ريختر:9، وتوصف بأنها مدمرة، أما العواقب والتبعات التي تنتج عنها :"فقد تدمرت المناطق المحيطة بمنطقة الزلزال على بعد ألف كيلو متر".

ورغم زلزال الأحزان الذي يدمره تدميرًا، يسعى "لاريس" جاهدًا لأن يقاوم، ويستعين ببراءة وشقاوة وانطلاق طفله الصغير في ذلك، لكنه في كل مرة كان يظن أنه تجاوز أحزانه، يكتشف أنه لا يزال هشًا جدًا "دائما ما يخالطنا الانطباع بأن الذي يحيا ويعيش في ظروف صعبة يكون بطلًا، خاصة إذا ما شاهدنا الأمور من بعيد، وأنا أعرف أنني لست بطلًا، فكل ما هنالك أن القدر أصابني ليس أكثر، أصابني بذلك المصاب دون أن يأخذ رأيي، ودون حتى أن يسألني إذا ما كنت مستعدًا لذلك أم لا".

يظل لاريس يحارب اليأس والأحزان بامتداد صفحات الكتاب، ينتصر مرة، وينهزم مرات، لكن كل أحزانه تتجمد في تلك اللحظة التي يرى فيها طفله الصغير يصعد على قبر أمه، ليلتقط صورته الموجودة عليه، ويعود بها إلى والده، وهو يستحثه على التحرك، وكأن ذلك رسالة من ابنه بأنه لا سبيل لنا إلا أن نستكمل الحياة، وروح أمه معهم، وكأن الطفل الصغير قد أدرك تلك الحقيقة التي أدركها والده أخيرًا "لا يستطيع أحد أن يتغلب على الموت وكل ما نستطيع فعله هو ترويضه".

"لن أمنحكم كراهيتي" كتاب صادق وشفاف بطريقة نادرة، يستمد صدقه وشفافيته من قسوة التجربة التي مر بها المؤلف ليروي عبرها تلك الرحلة الأبدية التي لا تنتهى أبدًا، ويواجه فيها الإنسان أصعب مخاوفه: أحزانه، ولعل لهذا السبب تحديدًا؛ فإن الكتاب يصلح لأن يكون تلك الهدية

التي نقدمها لمن نحب وهم يمرون بمحن الفراق والرحيل، لعلهم يعرفون أنه لا سبيل لقهر الحزن وعبوره سوى التشبث بالذكريات ومشاعر الحب ومقاومة الكراهية، وأن ندرك بأنه لا سبيل للاستمرار في هذه الدنيا، سوى بتقبل تلك الحقيقة التي تقول بأن الحياة تتغذى على الحزن كما تتغذى على الحب، وأنها تسير بكليهما معًا.

الرواية: لن أمنحكم كراهيتي.
المؤلف: انطوان لاريس.
الناشر: دار العربي– 2017.

زاوية أخرى: دار العربي لديها مشروع حقيقي لتقديم أعمال مترجمة بذكاء ووعي، كما أنها لا تذهب لتقديم الأعمال الأجنبية فائقة الشهرة، أو القادمة من بلدان معروفة بأدبها، وإنما تغامر بترجمة أدب من تركيا وأسيا الوسطى وأمريكا اللاتينية، وتهتم بترجمة الكتب الصحفية شبه الروائية التي يندرج تحتها كتاب "لن أمنحكم كراهيتي".

رسائل إلى فيرا.. لغز المرأة التي هزت عرش "نابكوف"

صدور الترجمة العربية لهذا الكتاب هو حدث أدبي مهم بامتياز.

أولا: لأنه يكشف جانبًا مهمًا من حياة الأديب الروسي البارز "فلاديمير نابكوف"، الذي يعد واحدًا من أشهر وأبرز الأدباء الروس في القرن العشرين وقد ارتبط اسمه بروايته الأشهر "لوليتا" التي باعت أكثر من خمسين مليون نسخة بلغات عدة منذ صدورها في فرنسا لأول مرة عام1955 –بعدما تحفظت عليها دور النشر الأمريكية بدعوى أنها تدعو للإباحية؛ لأنها تدور حول علاقة حسية بين رجل أربعيني وطفلة في الثانية عشر من عمرها– وتحجز مكانًا في قائمة أكثر عشرين رواية مبيعًا في التاريخ، وثانيا: لأن الكتاب في نسخته الانجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية عام 2015، وصدوره بالعربية بعد ثلاث سنوات فقط، يشير إلى عفية واضحة في جهود الترجمة للعربية، خاصة وأن الكتاب الأصلي ضخم للغاية ويكاد عدد صفحاته يصل إلى تسعمائة صفحة، أما ثالث الأسباب وليس آخرها بطبيعة الحال، فهو أن الكتاب يحيي من جديد "أدب المراسلات" بكل ما فهي من مشاعر وحميمية، وهو الأدب الذي ربما بات منقرضًا في ظل سهولة التواصل بين الجميع حاليًا باتصال هاتفي أو عبر رسائل الماسنجر، دون "شكر لساعي البريد" أو انتظار رد "الحبيب/ الصديق" بالأسابيع والشهور.

قصة العثور على هذه الرسائل المتبادلة بين نابكوف وزوجته فيرا، هي أيضًا قصة مثيرة وتثير الشغف.

يقول د.عبد الكريم الأسدي، المترجم وأستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة البصرة، في مقدمته للكتاب، أن طريق الوصول للرسائل كان شائكًا وصعبًا، ومر بمراحل عدة، أولهما هو رفض "فيرا" زوجة نابكوف بالأساس نشر رسائل زوجها على العلن، قبل أن يقنعها المترجمان" بريد بويد" و "أولجا فورنينا" بضرورة أن تفعل ذلك وفاء لإرث زوجها الأدبي. في عام 1984 أي بعد وفاة نابكوف بسبع سنوات، جلس "بويد" مع "فيرا" في شقتها بسويسرا، واتفق معها على أن تقرأ له بعض الرسائل، دون أن يرى أو يلمس هذه الرسائل، على أن يقوم بتسجيلها بصوتها عبر جهاز تسجيل.

لكن استكمال الحصول على جميع الرسائل استغرق ثمانية عشر عامًا كاملًا، ولم يتم إلا بعد وفاة فيرا، وجلب أرشيف نابوكوف من سويسرا إلى نيويورك عن طريق "ديمتري" ابن نابكوف الوحيد، ثم استغرق الأمر اثني عشر عامًا أخرى في ترجمة ومراجعة وتدقيق، ليصدر الكتاب أخيرًا في عام 2015 أي بعد واحد وثلاثين عامًا كاملة من بدء أول جلسة جمعت بين الكاتب "بويد" و "فيرا"!

هذا درس جديد يمنحه لنا كتاب "رسائل إلى فيرا"، كتاب واحد قد يستغرق الإنسان نصف حياته من أجل إنجازه.

كان "نابكوف" دائم الترحال، وقد هرب من روسيا مع والده وأسرته عام 1919 عقب قيام الثورة البلشفية بعامين، ليبدأ رحلة شتات طويلة، كانت اليونان أولى محطاتها ثم لندن، وتبعها ببرلين حيث التقى لأولى مرة حبيبته وزوجته لاحقًا "فيرا شلونيم" عام 1923، وهو العام الذي بدأ يكتب فيه الرسائل ولم يتوقف عن ذلك قط إلا عام 1977 حينما توفي، أي أن الرسائل التي يضمها هذا الكتاب، تغطي تقريبا ثلاثة وخمسين عامًا عاشها "نابكوف" تشكل فيها وعيه وتطور فيه أسلوبه الأدبي، وتحول فيها من أديب عابر يكتب الشعر والقصص ليقتات وقد ذاق شظف العيش حتى إنه كتب لزوجته رسالة في عام 1930 يخبرها فيها بأنه لا يملك المال

الذي يمكنه من شراء طوابع البريد ليكتب لها رسائل!، يعمل أحيانًا كفلاح في المزارع وصائد للفراشات، إلى واحد من أشهر أدباء القرن العشرين وأكثرهم ثراءً، وهي رحلة "كفاح" تستحق الرصد والمتابعة والقراءة بتمعن بكل تأكيد.

لا يضم الكتاب سوى رسائل من اتجاه واحد فقط، أي من "نابكوف" حيثما كان يرتحل قبل وبعد الزواج من "فيرا"، أما الأخيرة، فلم تشاء أن يتضمن الكتاب أي من ردودها على حبيبها وزوجها التي أصبحت مديرة أعماله ومنظمة شؤونه، حتى إنها حينما كتبت إقرارًا ضريبيًا عن دخلها في الولايات المتحدة ذات يوم، سجلت في خانة المهنة كلمة واحدة "مساعدته". ويكشف تحفظ "فيرا" على نشر رسائله لـ «نابوكوف" على جانب أنثوي واضح لديها، كونها أرادت– فيما يبدو– الاحتفاظ بمشاعرها الخاصة التي بادلتها لنابكوف دون أن تكشفها للعلن، ربما أيضًا لأن جزء من وهج رسائل نابكوف لفيرا، خاصة فيما يتعلق بمشاعره نحوها، يتجلى في كون أن الرسائل جميعها "دون رد"، بل أنه في العديد من الرسائل وبخاصة الأولى منها في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، يبدو فيها "نابكوف" معاتبًا على حبيبته أنها لا ترد على رسائله إلا قليلًا، حتى إنه بدأ أحدها قائلًا، (يا حبيبتي، اكتبي لي، ما هذا العناد، إنه يقتلني.. ماذا يحصل؟ إنه لن ينفع، سامحيني! لكن هذا العناد لن ينفع! رسالة من باريس إلى برلين في 1937) بينما كتب في رسالة أخرى بعد عام واحد فقط من الزواج (يبدو أنك تكتبين لكل الناس باستثنائي! هل هذا عدل!– رسالة من برلين إلى المصحة حيث كانت تتلقى فيرا العلاج في 1926)، وهذا يضفي مزيدًا من المشاعر على تلك الرسالة المفعمة المحبة والملتاعة برد لا نقرأه أبدًا، لكنه في ذات الوقت يثير التساؤل عن حقيقة ما تكنه "فيرا" لنابكوف، كونها حينما تلقت عرضًا من إحدى دور النشر عام 1984، بجمع رسائلها لنابكوف في كتاب، لم تكتف برفض ذلك العرض فحسب، بل قامت بإتلاف كل مراسلاتها، وحتى بطاقات المعايدة والتهنئة التي أرسلتها هي إلى

نابكوف؛ لتحرم أي جهة أو شخص (ربما كانت تتحرص من سلوك محتمل لابنها الوحيد بعد رحيلها) من الاطلاع على "مشاعرها" والاكتفاء فقط بقراءة لوعة ومشاعر نابكوف.

"فيرا" كانت أنثى شحيحة في الإفراج عن مشاعرها فيما يبدو.

ربما أيضًا كانت تنتقم– قد يكون اللفظ حادًا بعض الشيء– أو للدقة ترد لـ «نابكوف" ذلته، حينما وقع في حب فتاة روسية مهاجرة بعد زواجه من فيرا باثني عشر عامًا، شكلت هذه العلاقة أزمة كبيرة بين الزوجين، وتمسك فيرا بطبيعة الحال بأن يتخلى نابكوف عن عشيقته، وفعل ذلك بالفعل في غضون أشهر، لكن ورغم تجاوزهما هذه الأزمة، فإن علاقة نابكوف بفيرا – رغم هذا الحب العظيم– بدا أنها تجسيدًا لعبارة قالها نابكوف نفسه: "لا سماء صافية من الغيوم".

في كل الأحوال فإن فيرا، ذهبت إلى مصحة للعلاج من "الكآبة والقلق وفقدان الوزن" عام 1926 بعد سنة واحدة فقط من زواجها بـ «نابكوف"، وتزخر رسائل هذه الفترة – التي ذهبت فيها فيرا للمصحة– بالكثير من مشاعر الحب التي يبثها لها نابكوف، محاولًا دعمها في المصحة، لكن أيضًا كعادته، فقد كانت هذه الرسائل نفسها تضم تفاصيل تتعلق بحياته اليومية وتعاقداته الأدبية ومحاولته الدؤوبة لكسب المال.

لغز فيرا الكامن في سطور هذا الكتاب، يصل ذروته في مجموعة رسائل عام 1932، فيرا، رفضت بشكل قاطع أن يطلع أحد مطلقًا على هذه الرسائل، والجزء المنشور منها في الكتاب، هو حصيلة تسجيلات صوتية أملتها هي بنفسها على محرر الكتاب، الذي سعى عقب وفاة "فيرا" لأن يطلع على نصوص رسائل عام 1932، ضمن تراث نابكوف الذي سلمه نجله إلى مكتبة نيويورك، وحينما فعل المحرر ذلك، اكتشف أن المكتبة لم تتسلم قط رسائل عام 1932، بل أن هذه الرسائل لم توجد أيضًا في قبو

شقة نجل نابكوف بنيويورك حيث اعتاد الاحتفاظ بأرشيف والده، فلماذا وضعت "فيرا" هذا الغطاء المحكم من السرية على رسائل عام 1932؟ خاصة وأن هذا عام عادي جدا في علاقتها بنابكوف، ولا يوجد فيه حدث أدبي كبير له باستثناء نشر رواية "الكاميرا المظلمة وضحك في الظلام" وقد قضى جل وقته متنقلًا بين براج وبرلين.

حتى إن الرسائل التي سمحت فيرا بنشرها لهذا العام نقلًا عن تسجيلاتها الصوتية لها، تبدو في طبيعتها، مختلفة عن باقي الرسائل، فهي رسائل في مجملها "عملية" تخلو من عبارات الحب والغزل التي اعتاد نابكوف تضمينها في رسائله لزوجته، ولا تكشف الرسالة سوى عن تنقلات نابكوف وبعض حساباته المالية، ومشاركته في أمسيات أدبية، فما السر الذي أرادته فيرا إخفاءه بإخفاء رسائل عام 1932؟

بطبيعة الحالة تقل وتيرة وسخونة المشاعر في الرسائل تدريجيًا، فإذا كانت رسائل العشرينيات الممتدة ما بين عامي 1923 و1929 قد وصلت إلى تسع وستين رسالة، فإن فترة وهج الرسائل قد بلغت ذروتها في الثلاثينات بمائة وسبع وستين رسالة، للتراجع الوتيرة في الأربعينيات وتسجل ثلاث وثلاثين رسالة فحسب، وتقتصر رسائل الخمسينيات على رسالتين فقط في عام 1954، وفي العموم فإن الرسائل لا تخلو من بعض التفاصيل "الزوجية" التي لا تهم القارئ العادي، فيما يتعلق بتنظيم شئونهم المالية أو ترتيبات للسفر، لكنها أيضًا توضح أن التفاصيل العادية لا يخلو منها أي حب.

تعكس الرسائل في بعض الأحيان توترًا في العلاقة بين نابكوف وفيرا، خاصة فيما يتعلق بعد استقرار نابكوف في بلد ما لسنوات طويلة، خلال الثلاثينيات والأربعينيات، لكن هذا التوتر يظل منقوصًا مادام فيرا قد امتنعت عن نشر رسائلها لنابكوف، وذلك على عكس ما جرى مثلًا بين أديب بارز آخر هو "كافكا" ومعشوقته "ميلينا" حينما صدر كتاب رسائل إلى ميلنا وقد

ضم الرسائل المتبادل بين الحبيبين؛ فأعطى ذلك رؤية أكثر شمولية للعلاقة بينهما، في حين ظلت هنا في رسائل إلى فيرا، منقوصة ومبتورة.

رسائل إلى فيرا، إذن –يكشف، على الأقل في ثلثه الأول– جانبًا من اللغز الذي نعرفه باسم الحب، خاصة حينما يزور قلوب الأدباء والكتاب الفارقين في مسيرة الأدب، ويكشف أيضًا جانبًا من طبيعة الأنثى الغامضة (ربما تحديدًا الأنثى التي تقترن بأديب بارز)، حينما تظل متمسكة للأبد بأن تحتفظ بجزء من السر معها هي وحدها فحسب.

الكتاب: رسائل إلى فيرا.
المؤلف: فلاديمير نابكوف.
الناشر: دار الرافدين 2018.

زاوية أخرى: انتشرت الكثير من الاقتباسات عبر وسائل التواصل الاجتماعي المنسوبة لنابكوف؛ للدلالة على حبه الشديد لفيرا، بمراجعة الرسائل الواردة في هذا الكتاب، يبدو أن معظم هذه الاقتباسات "كاذبة" ولم ترد على لسان نابكوف قط. في كل الأحوال علاقة الحب بين نابكوف وفيرا تبدو وكأنها لا تخلو من أمراض الاستحواذ والأنانية المفرطة، وهي مفاهيم على الأرجح بعيدة عن الحب الحقيقي.

5 كتب لـ «مذكرات المشاهير" يجب أن تقرأها في الصيف

تخطف بضعة أيام في الساحل الشمالي أو تحجز "عشة" في رأس البر لمجرد يوم بليلة، الصيف ليس بحرًا فحسب، بل هو فرصة أيضًا – أو هكذا ينبغي أن يكون– لتنشيط العديد من العادات الحميدة التي أبعدتك طبيعة الحياة الروتينية وضغوطات العمل عنها، أبرز هذه العادات هي قراءة الكتب بالطبع، وربما تكون قراءة "مذكرات المشاهير" هي أحد أسهل وأجمل الطرق التي تجعلك تعود لحضن القراءة مجددًا، أولًا: لأن المذكرات عادة مادة ملهمة وممتعة، خاصة إذا اقترن ذلك بالكشف عن أسرار في حياة مشاهير نحبهم، أو نتعجب من بعض سلوكياتهم، كما أن المذكرات تكشف لك عادة جوانبًا خفية وجزءًا من تلك الآثار المروعة التي تخلفها الشهرة والنجومية في حياة المشاهير من أهل السياسة والأدب والفن، وكيف فعلًا أن "الإنسان مبيخدش كل حاجة"، وأن الثروة والشهرة والجماهيرية، تأكل عادة من لحم الواحد وروحه، لكنه في نفس الوقت لا يستطيع التخلي عنها أبدًا، وقد صارت جزءًا من كيانه وحياته.

المذكرات تساعدك على فهم بعضًا من دقائق النفس البشرية وأسرارها، والصراعات الداخلية التي تدور فيها، وكيف يمكن لفنان فذ مثل سلفادور دالي أن تكون له أراء شديدة الفلسفة والقيمة، لكنه في ذات الوقت يمكن أن يمارس أفعالًا طفولية عجيبة، بينما فاتنة وساحرة مثل مارلين مونرو يمكن أن تعيش حياة صاخبة مبهرة مثالية لأي شخص، بينما هي في نهاية اليوم تبحث فقط عن ساعتين بمفردها حتى تجلس في بانيو بها ماء دافئ؛ لتبكي

أو لتتذكر العذابات التي مرت بها والتي لا تزال تنتظرها بعد.

المذكرات هي مختصر حياة البشر، ولا يوجد أفضل من أن تعرف قبسًا منها، وأنت تضع قدمك في مياه البحر.

~~~

1– قصتي.. مارلين مونرو

250 صفحة، دار المدى

الكتاب هو المذكرات غير الكاملة لفاتنة هوليود الخالدة مارلين مونرو، كتبتها هي بالاشتراك مع كاتب سيناريست أمريكي شهير فاز بالأوسكار مرتين وهو "بن هكت". المذاكرات المنشورة هذه، للأسف هي مذكرات منقوصة، والسبب يعود لأن مارلين مونرو اختلفت مع المؤلف وطلبت منه عدم نشر الكتاب بعد ما سجلت معه المذكرات على مدار ثلاث سنوات منذ 1954 لغاية 1957، وهي سنوات توهجها الفني والأنثوي، فظلت المذكرات ممنوعة من النشر وبحوزة مؤلفها، وبعد وفاة أو انتحار أو قتل (يبدو أننا لن نعرف الحقيقة أبدًا) الذي طال مارلين عام 1962 اختفت المذكرات تمامًا، وكأنها لم تكتب قط، واستغرق الأمر اثني عشر عامًا كاملًا لتظهر المذكرات مرة أخرى عام 1974 مع مصور مارلين مونرو الشخصي الذي قرر أخيرًا نشرها بالإنجليزية طبعًا، وقد احتجنا نحن كقراء العربية لنحو ثلاث وأربعين سنة كاملة لنقرأ الترجمة لهذه المذكرات الخلابة الآسرة، إذ صدرت الترجمة بتوقع المترجم المتمكن باسم محمود عن دار المدى عام 2017

ماذا ستستفيد من قراءة هذا الكتاب؟
~~~

1– أولًا: هذه مذكرات مارلين مونرو، وهو ما يعني أنك لست محتاجًا لأي سبب آخر أكثر من ذلك حتى تقرأها!

2– ثانيا: المذكرات مكتوبة بأسلوب أدبي بديع، وبترجمة جميلة جدًا لمترجم عراقي هو باسم محمود، ونعرف من خلالها كيف كان الجمال نقمة حقيقية وخبرة مروعة على مارلين مونرو، وليس منحة ونعمة كما تسهل القراءة السهلة لوجه مارلين وجسدها، إلى حد أن كثير من المنتجين في هوليود اشترطوا على مارلين اشتراطات مهينة لأي امرأة، وذلك من أجل أن تظهر فقط في عدة مشاهد عابرة في أفلام متوسطة القيمة في بدايات حياتها، وهو أمر لخصته مارلين مونرو في مذكراتها بهذا القول الخالد الذي ربما لا تقف حدوده عند هوليود فحسب: (هوليود مكان حيث سيدفعون لك آلاف الدولارات مقابل قبلة، وخمسين سنتًا من أجل روحك).

3– ستعرف كيف عاشت مارلين طفولة صعبة جدًا يمكن وصفها بضمير بأنها كانت "معذبة"، إذ توفى والدها – الذي لم يكن زوج أمها بالأساس– مبكرًا، دون أن تتذكر ملامحه تقريبًا، ثم وبسبب ما لحق بها من صعوبات في الحياة لاحقًا وقد عاشت وحدها بمفردها في مجتمع لا يرحم، دخلت أمها مستشفى الأمراض العصبية وابنتها لم تزل بعد صغيرة، فاضطرت مارلين أن تنتقل للمعيشة في أكثر من بيت لا يجمعهم سوى "الفقر والبؤس"، وكان حلم مارلين الطفولي الأبدي أن يكون لديها حمام خاص بها؛ لأنها كانت تدخل الحمام بالدور في سنوات عمرها الأولى؛ بسبب فقر البيوت التي عاشت فيها، ولهذا عندما أصبحت "نورما جين"– وهو اسمها الحقيقي– مارلين مونرو فاتنة هوليود، كان لديها عادة لم تملك أن تغيرها قط، إذ كانت تظل في البانيو لمدة ساعتين قبل ذهابها إلى مواعيدها مع المنتجين أو الحفلات، وكأنها كانت تغتسل من سنوات الفقر، وتتحسب لما ستراه من "وساخات" في الحفلة التي ستذهب إليها بعد قليل.

4– ستعرف وجهة نظر مارلين مونرو في الحياة والحب والرجال

والنساء، وكيف أنها كانت تخاف من النساء أكثر من الرجال في حياتها؛ لأنها تعتقد أن مواجهة ذئب أفضل من أن تواجه شخصًا لا تعرف ماذا يريد منك؛ ولأن النساء كانوا غالبًا ضدها أغلب الوقت ليس فقط لأنها عشان جميلة، وإنما لأنها كما كانت تقول على نفسها: "كنت أحاول أن أكون صريحة مع النساء وهذا أكثر صعوبة من أن يكون المرء صريحًا مع الرجال".

***

2– هم وأنا.. صالح مرسي

300 صفحة، دار نهضة مصر

كثيرون يعرفون اسم صالح مرسي من خلال روائعه التليفزيونية الخالدة مثل "رأفت الهجان"، و «دموع في عيون وقحة" وغيرها من أفلام قصص المخابرات الشهيرة مثل "الصعود إلى الهاوية"، لكن صالح مرسي لم يكن مجرد كاتب قصص بوليسية متمكن وحريف، ولكنه أيضًا كان أديبا من طراز نادر، كتب القصة والرواية، وكانت له علاقات قوية مع عتاولة الكتابة في مصر، التي سجل بعضًا منها في هذا الكتاب البديع والاستثنائي والذي يحمل مزيجًا من "السيرة الذاتية" و "السيرة الأدبية والفكرية" لمؤلفه ولنجوم الكتابة في زمنه.

ماذا ستستفيد من قراءة هذا الكتاب؟

1– الكتاب بانوراما حقيقية للحياة الأدبية المصرية في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، ستعرف قيمة "قعدات الأدباء" على القهاوي زمان، وإنها لم تكن من أجل لعب الطاولة أو النميمية الفارغة أو لاصطياد الحسناوات، وإنما "اجتماع على مستوى القمة" الكل فيها

يتناقش ويبتادل الأفكار والقيم ومعاني الأدب والحياة، طبعا هذا أمر مفهوم؛ لأن مثل هذه القعدات كان تضم أسماء مثل نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وفؤاد دوارة وغيرهم.

2– ستقرأ عن تفاصيل لقاء صالح بمرسي بنجيب محفوظ، وكيف أن رواية "بداية ونهاية" جعلت صالح مرسي يتحول من بحار يلف الدنيا على السفن إلى أديب مرموق، وستسمع أيضًا تحذير نجيب محفوظ لصالح مرسي من أنه "يسيبه نفسه للصحافة وينسى الأدب"، وذلك عندما قال له ناصحًا "الفن عموما عاوز نوع من الرهبنة، والقصة بالذات، محتاجة اهتمام شديد، وتفرغ حقيقي، محتاجة لحب يا أستاذ صالح"

3– سترى بعينك حقيقي وليس مجازًا الوصف التفصيلي لشارع "السبع بنات" في الإسكندرية سنة 1955، عندما اصطحب صالح مرسي، أديبنا الكبير يوسف إدريس في رحلة مجنون في قلب هذا الشارع حتى يعرَّفه "إسكندرية بتاعة الناس مش إسكندرية بتاعة ولاد الناس"، لأن الشارع وقتها كان هو مقصد البحارة من كل مكان في الدنيا القادمين للإسكندرية؛ حتى يأكلوا ويشربوا و "ينبسطوا"، ثم يركبون البحر مرة أخرى.

4– ستعرف أن الأديب الحقيقي مثل: يحيى حقي ونجيب محفوظ وغيرهم لا يخافون من أصحاب الموهبة الحقيقية، بالعكس يشجعونهم، وأن الناقد الحقيقي هو ليس ذلك الجزار "اللي بيكسر المجاديف" وإنما الذي يشجع الكتاب الجداد ولو بكلمة حلوة، أو كما قال الناقد الكبير د.محمد مندور لصالح مرسي وهم في القطار المتجه ذات يوم للسويس "اسمع ياوله يا صالح، الفن مالوش كبير ومالوش سن كمان، ممكن واحد يطلع رواية واحدة يدخل بها التاريخ ويعيش عليها عمره وبعد عمره كمان، الثقافة مهمة يا وله، بس المهم إنك تناقش بينك وبين نفسك اللي بتقرأه".

***

3– ستيف جوبز

266 صفحة، دار بلومزبري

حتى لو لم تكن ممن يحملون "آي فون"، يبقى جواك "حتة كده" تجعلك تحلم باقتناء هذا التليفون الساحر يومًا؛ ربما لأن "أي فون" له طبيعة خاصة، يمكن عشان غالي، يمكن عشان بتحس إن اللي بيشيله إنسان مميز رغم إنه يعني في الأول وفي الآخر تليفون، في كل الأحوال الآي فون، هو واحد من أهم وأنجح الاختراعات والمشاريع في آخر خمس عشرة سنة في العالم وهو الذي صنع فعليًا ثورة الـ **smart phone** التي أصبحت جزءًا أساسيًا من حياتنا الآن، وكانت طرفًا وربما سببًا في تغيرات شتى سياسية واقتصادية واجتماعية؛ ولهذا فإن قصة حياة ستيف جوبز مؤسس آبل وآي فون تستحق أن تعرف شيء ما.

ماذا ستستفيد من قراءة هذا الكتاب؟

1– ستعرف أنه ليس بالضرورة أن تكون تلميذًا نابغًا ومؤدبًا حتى تصبح ستيف جوبز عندما تكبر، فمؤسس آبل كان تلميذًا شقيًا جدًا لدرجة أنه في أحد الأيام اشترى ثعبانًا ووضعه أسفل مكتب معلمته في الفصل؛ لأنه لم يكن يحب طريقتها في التعامل معه، مكتب مدرسته في الفصل، وتعرض للطرد والفصل مرتين في المرحلة الابتدائية، ومع ذلك وقف إلى جواره والده ووالدته وقالوا للمدرسين "إذا لم تستطيعوا أن تثيروا اهتمامه فهذا خطؤكم"، لاحظ كمان أن جوبز التحق بالجامعة لسنة واحدة فقط، ثم قرر بعدها "إن ده مش مكانه"، وإنه في سن ثلاث وعشرين سنة فقط كانت ثروته مليون دولار، في حين أن هناك مئات آلاف تعرف أنت منهم ألفين شخص على الأقل مرتبهم يكون في مثل هذا السن لا يزيد عن 1200 جنيه؛ لأنها تخرجت للتو في الجامعة ولا تملك خبرة كما تعرف.

2– قد تتغير قناعاتك، وتظن مثلا بأن "السرقة أحيانًا تكون حلال".. وأكبر دليل على ذلك أن سيتف جوبز سرق فكرة الماوس والديسك توب من شركة زيروكس عندما دخلت هذه الشركة الأمريكية العريقة شريكة لفترة في آبل، ستيف جوبز نفسه لم تكن لديه مشكلة في الاعتراف بالسرق، ويبرر ذلك بقوله أن " زيروكس كان عندها الفكرة، لكن لم يكن لديها القدرة على التطوير" وتوحد جوبز مع هذا المنطق بشدة، حتى إنه كلما كان يسألها الصحفيون عن ذلك الأمر كان يجيبهم بمقولة بيكاسو "الفنانون الجيدون ينسخون، والفنانون العظماء يسرقون"!

3– ستخرج بمجموعة كبيرة من الquts والاقتباسات الملهمة فعلًا التي قالها سيتف جوبز، وشكلت ملمحًا من حياته، وهي الاقتباسات التي يمكن أن تضعها كستاتيس على فيس بوك أو تحطها على باب التلاجة منها مثلًا "وقتكم محدود فلا تضيعوه وأنتم تعيشون حياة شخص آخر"، و «الرحلة هي المكافأة، لا يتعلق الأمر بمجرد تحقيق شيئًا رائعًا، ولكنه يتعلق بالممارسة الفعلية لهذا الشيء"، "استمروا في البحث عن الحب حتى تجدونه، لا تتنازلوا عما تريدون".

***

4– مذكرات توني بلير

940 صفحة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

عندما صدرت هذه المذكرات في بريطانيا لأول مرة، صنعت ضجة أدبية وسياسية كبيرة، الضجة السياسية مفهومة؛ لأن من كتبها هو واحد من أكتر رؤساء الوزراء البريطانيين إثارة للجدل، لكن الجدل الأدبي كان سببه المطالب التي دعت لتصنيف هذه المذكرات باعتبارها من "كتب الجرائم" وذلك؛ لأن توني بلير في المذكرات لم يبد الندم قط على قرار

غزو العراق سنة 2003، بعض المكتبات في لندن وضعت الكتاب فعلًا في قسم "قصص الرعب" و "مآسي الحياة"

رغم كل هذا فإن الكتاب مهم جدًا، ليه بقى؟ أقولك...

1- الكتاب يحكي جزءًا من كواليس صعود حزب العمال في بريطانيا للحكم بعد غياب ست عشرة سنة، وكيف استطاع توني بلير بالدهاء مرة وبالنصب السياسي مرات أخرى أن يظل في الحكم لثلاث عشرة سنة متتالية، كان فيهم أحداث مزلزلة مثل 11 سبتمبر وغزو العراق وأفغانستان. في الكتاب نعرف رؤية بلير للسياسة التي عادة ما تساعد أصحابها على الوصول للسلطة غالبًا، يقول بلير ملخصًا رؤيته السياسية: "أول قاعدة في السياسة هي عدم وجود قواعد مطلقًا، أقله ليس بمعنى وجود خاسرين دائمين ورابحين حتميين" وهي مقولة ذكية فعلًا، لكن لا بد أن تطبق في بلد يمارس السياسة بالأساس.

2- ستعرف أن السياسيين عادة ما يستغلوا الأحداث الكبرى الحزينة لصالحهم، توني بلير نفسه اعترف في هذه المذكرات بأنه عندما علم بخبر وفاة الأميرة ديانا في حادثة سيارة غامضة ومروعة، زعل صحيح عليها، لكنه على الفور بدأ يفكر بشكل عملي كيف يمكن أن يستفيد من طوفان المشاعر الحزينة الذي انتشر في شوارع بريطانيا لصالحه سياسيًا، كيف يمكن أن يحول حزن الناس لطاقة إيجابية ناحية حكومته والأسرة البريطانية الحاكمة خاصة وإنه كانت هناك حالة غضب شديدة تجاه الملكة وقتها، باختصار ستعرف أن السياسية "مالهاش قلب".

3- ستعرف أن أهم صفة في السياسي أن تكون لديه قدرة على "ضبط المصطلحات"، توني بلير مثلًا عندما جرى التحقيق معه بسبب قرار غزو العراق رفض أن يقول: "أنا آسف على الحرب" وتمسك بأن يقول "أنا المسئول عن قرار الحرب"، وفسر هذا بأن المسئولية "مستمرة" في

المستقبل وستجبره على أن يحاول إصلاح ما وقع، أما الآسف فهو "اعتذار" عن الماضي دون أي مسئولية في المستقبل "صياغة" سياسية كما ترى؛ ولهذا الكتاب مهم فعلًا لكل من يريد استخلاص العبر السياسية والحياتية، ولكل من يفكر في ممارسة السياسة يوما ما، في بريطانيا نقصد طبعا.

***

5– يوميات عبقري/ سلفادور دالي

مكتبة الأسرة، 250 صفحة

غالبًا ما نتعامل مع من يصف نفسه بال «عبقري" أنه إما مجنون أو مغرور أو الاثنين معًا، لكن هناك شخص واحد فقط، تعاملت معه الناس بشكل عادي جدًا عندما قرر أن يصف نفسه بأنه عبقري، هذا الشخص هو الفنان الإسباني الشهير سلفادور دالي، الذي حينما قرر أن يكتب جزءًا من مذكراته، أطلق عليها اسم يليق به جدًا– يوميات عبقري.

ماذا ستستفيد من قراءة هذا الكتاب؟

1– ستعرف أن نقطة تحول كبيرة في حياة دالي جاءته، عندما عرف أن هتلر انتحر، يومها جلس يفكر سبعة عشرة دقيقة – هو كاتب كده بالظبط– ثم قرر بعدها أن يصبح أهم رسام في العالم، لكنه في نفس اللحظة تذكر أن كريستوفر كولمبس مكتشف أمريكا مات فقيرًا وفي السجن، وأن سرفانتس أهم أديب في تاريخ إسبانيا الذي كتب "دون كيشوت" مات معدمًا، وعليه قرر دالي أمرين، الأول أن لن يدخل السجن، والثاني لأنه لن يكون فقيرًا، وقال لنفسه جملة عبقرية فعلًا: "أسهل الطرق لعدم تقديم تنازلات للذهب هو أن تمتلكه" تقريبا كان قصده عش غني تموت مبسوط.

2– ستعرف أن بعض من لوحات سلفادور دالي اترسمت بالغلط، ولما غلط وهو بيرسمها نظر لها نظرة مختلفة؛ فوجدها جميلة فتركها هكذا وهو ما كتبه نصًا في يومياته: "الأخطاء في معظم الأحيان ذات طبيعة مقدسة، لا تحاول تصحيحها بل على العكس حاول أن تعقلنها وافهمها بدقة ثم حاول ان تصقلها"

3– ستعرف سر خلطة النجاح التي اخترعها سلفادور دالي، والتي لخصها لشاب سأله يومًا عن سر النجاح، فقال له: "إن الفوز باحترام المجتمع شيء عظيم، لكن إذا امتلكت موهبة كبيرة؛ فعليك في مطلع شبابك أن تعطي هذا المجتمع الذي تحبه ركلة قاسية، ثم كن متعاليًا، وأعلم أن النقد شيء رفيع وسام، ولا يستحقه سوى العباقرة".

كتاب المواصلات.. شيء من روحك هنا

يبتع عمر طاهر في كتابه الجديد "كتاب المواصلات" منهجًا استثنائيًا في الكتابة هو أنه لا "مسكة" لهذا الكتاب، يمكن أن تقرأه من أوله لآخره، وبالعكس يمكن أن تبدأ من حكايات المنتصف وتنتقل إلى آخر حكاية ثم تعود لتقرأ البداية، وفي كل مرة تقرأ فيها الكتاب ستجد أن أثرًا ما يبقى في روحك وآلاف الأفكار نبتت في رأسك، كثير من هذه الأفكار به الكثير من الشطط الإنساني، والأسئلة الوجودية عن معاني الحياة وتفاصيلها، وبعضها تجد نفسك تفكر فيه ثم تبتسم وتغمض عينيك لثوانٍ، ثم تفتحها لتقرر أن تكمل حياتك وبها قبس من سعادة.

هذا كتاب يقرأ كما تحب؛ ربما لأنه بالأساس مكتوب بحب.

عنوان الكتاب أيضًا خادع.

تظن بأنك ستقرأ قصص مسلية، عابرة، ينتهي أثرها فور نزولك من الأتوبيس أو المترو، لكنك ستفاجأ بأن "الموضوع" أكبر من ذلك بكثير، وأن حكاية خادعة يبدأها عمر طاهر بلحظة خواء أو ملل وحيدًا في الشقة برفقة "الولاعة" أو "القداحة" كما يحتار هو في تسميتها، سقطت منه أرضًا، ستأخذك في غابة من الأسئلة الممتعة حول حزن فريد الأطرش وعذابه في الحب، ومسألة هل الإنسان مسير أم مخير حتى ولو كان يسمع مجرد عبارة روتينية عادية من نوعية "من فضلك ضع السماعة"، ولماذا يؤدي الزواج إلى العبودية رغم أنه يجب أن يؤدي إلى الاستقرار والفارق بين الاثنين كالفارق بين الأهلي والزمالك! يلجأ عمر هنا إلى تداعي الأفكار ولكنه تداعٍ

يمكن وصفه بأنه تداعٍ "منظم" للأفكار، أي أنه فيه غرض ومنهجية، وليس مجرد استرسال في المطلق. هذه مهارة تحتاج قدرًا كبيرًا من السيطرة على الأفكار "المتداعية" بالأساس، ولجمها، والتخلص من "زوائدها" بقلب جامد، وهو ما يتجلى هنا بوضوح بالفعل.

منهج التداعي "غير الحر" يغلف الكتاب عمومًا، معظم الحكايات تبدأ من مستصغر التفاصيل، مشهد في "ماسبيرو زمان"، صديق صبغ شعره بالأسود، ولاعة تسقط أرضًا، ثم تتسع التفاصيل وتكبر رويدًا رويدًا حتى تكون ألف قصة وحكاية ومعنى وأثر.

كعادته، يكتب عمر طاهر عمن يحب.

في حكاية "بين قوسين" تجد نفسك أسيرًا لحكاية المحمدين، محمد فوزي كروان الموسيقا العربية المعاصرة، ومحمد لطيف كروان التعليق الكروي العربي إلى الأبد. ينسج بذكاء ومحبة مزواجة بين منهجهما في الحياة وفي الموسيقا والكورة، مختارًا بعناية تفاصيل تكشف جانبًا من شخصيتهما المحبة للمهنة وللناس والحياة، كأن يورد إجابة محمد لطيف على سؤال "لماذا يجامل الأمن في تعليقه" فيذكر أن كابتن لطيف طلب ساعة "ستوب ووتش"، وقال للصحفي الذي سأله هذا السؤال أحسب، ثم بدأ كابتن لطيف يعلق موجهًا التحية للأمن على طريقته كما يفعل في المباريات بالضبط، ثم أنهى كلامه و سأل الصحفي عن الوقت الذى استغرقه فقال الصحفي: " 15 ثانية"، قال لطيف: " مستكتر 15 ثانية تحية على ناس موجودة قبل الماتش بأربع ساعات وبعده بأربعة كمان"؟ ثم أن عمر لا يترك جملة عادية لصاحبها الكابتن محمد لطيف، باتت أيقونة كرواية مثل "الجون بيجي في ثانية"، إلا وقد أعطاها المعنى الكبير الذي تتأثر وراءه، لقد كان الكابتن لطيف، في تفسير عمر طاهر الذكي، يحارب بهذه الجملة المختصرة المحفزة أكبر أعداء الإنسانية وأشهدهم خطورة– اليأس.

سيرة المحبين متناثرة في صفحات الكتاب، هناك حكاوي ممتعة وغير تقليدية عن بليغ حمدي ومحمد حمزة وفايزة وعمر فتحي وعماد عبد الحليم، وسيد حجاب، بل أنه يحكي كواليس لقائه الأول مع الأديب البرازيلي العالمي الأشهر "باولو كويلو"، وكيف أنه ذهب إلى البرازيل في آخر شهور التسعينيات بطموح لإجراء حوار مع نجم المنتخب البرازيلي الفذ روماريو، وحوار آخر من كويلو، أما روماريو فقد طلب خمسة آلاف دولار في حوار لا يزيد على العشر دقائق ، أما كويلو فقد أخبر سكرتير السفارة المصرية الذى اتصل به أنه موجود كل يوم في البيت من التاسعة صباحًا حتى غروب الشمس لمدة ثلاثة أسابيع قادمة، فقد كان يصف عمر طاهر مكتب كويلو قائلا " كان باولو كويلو يجلس على مكتبه في غرفته الواسعة جدًا الخالية تماما من كل شيء فيما عدا مكتب صغير إلى جوار نافذة كبيرة تطل على المحيط الأطلنطي ومقعدين و مكتبة بعرض الحائط". لم يخرج عمر بحوار صحفي فحسب، بل أيضًا باتفاق على ترجمة رواية " بالقرب من نهر بيدرا جلست وبكيت". لكن الأمر استغرق أربع سنوات كاملة، والكثير من العثرات والإرادة حتى ينجز عمر طاهر الترجمة، فلما فعل ونفدت الطبعة الأولى من الرواية، اشترت دار نشر لبنانية كل حقوق كويلو، فقرر بعدها ألا يكرر تجربة الترجمة مجددًا.

في "كتاب الميكروباص" يكشف عمر طاهر جانبًا من مشواره الصحفي، ليس على طريقة لقد فعلت، ولقد انجزت، ولكن أيضًا يفعل ذلك بنظرة طائر لماح، يستخلص العبرة والمعاني والدلالات، فإذا كان من الممكن فهم أن مقالًا لدكتور حسين مؤنس ولقاء مع الشاعر والصحفي إبراهيم داوود، كانوا سببًا في اتساع نظرته للصحافة وللكتابة، وفي الالتحاق بتجربة صحفية ملهمة مثل الدستور حينما ظهرت في منتصف التسعينيات، فكيف يمكن استيعاب الدور الذي لعبه سياسي عجيب مثل "أحمد الصباحي" وقد كان رئيسًا لحزبًا غرائبيًا يدعى حزب الأمة في زمن مبارك، سببًا في صعود سريع لعمر طاهر في درجات السلم الصحفي؟ هنا تحديدًا يكمن سر الحكايات

والأشخاص، وتظهر خبرة الكاتب ومهارته في استخلاص المهم من العادي، وفي تفسير معنى عبارات خالدة من نوعية "يوضع سره في أغرب خلقه".

ثم أنه وفيما بدا أنه منهجًا أصيلًا في كتابته، يحرص عمر طاهر على أن "يعيد الحق لأصحابه" خاصة إذا كانوا من "أبناء الشعب العادي" ممن لا ظهر لهم في الصحافة والإعلام، وهكذا أصبح ذهاب عمر في زيارة نادرة لمدرجات النادي الأهلي تشجيعًا للفريق الأحمر في مباراة إفريقية مصيرية، سببًا في معرفة صاحب دخلة "كل الناس بتقول يا رب" التي تحولت إلى دخلت تشجيعية هادرة في الملاعب، وأغنية يتغناها كثيرون طلبًا للمدد والنصرة، إنه الشاعر "حسين السوهاجي" الذي يلخص عمر، جمال وعنفوان وقوة دخلته بقوله " أكتب الأغاني أحيانًا، و فكرت أن أضع نفسى مكان الشاعر الغنائي " حسن السوهاجي"، جهة ما ربما الإذاعة المصرية تطلب أغنية دينية، من رابع المستحيلات ان أعثر بسهولة على دخول يلخص كل شيء بنفس قوة " كل الناس بيقولوا يا رب"، حاول السوهاجي أن يلتقط معجزة يمدح بها الله، فلم يجد معجزة أوضح و أقوى من كون كل الناس بلا استثناء تقول يا رب".

يمر الكتاب سريعًا على المغرب وإيران في حكايتين قصيرتين بديعتين، وهو أمر يوحي بإمكانية أن يقوم عمر طاهر بجمع رحلاته الصحفية والتأملية، وهي عديدة، في العديد من دول العالم في كتاب، حتمًا سيكون إضافة لعالم أدب الرحلات العربي.

رغم تنوع حكايات كتاب المواصلات، إلا أن المرأة تحتل مساحة كبيرة من صفحات الكتاب، تجدها تطل بين السطور بزخم، وعلى اختلاف الحالات التي تظهر فيها، بين زوجة متفهمة وأحيانا "زنانة" أو حبيبة قلقة وأحيانًا أحد أسباب البقاء حيًا، أو أم تربي أبناءها على أن "يمشوا دون أن تخط أقدامهم الأرض"، يبقى أن المرأة بالنسبة لعمر طاهر، جنبًا إلى جنب مع "الحب" وهو أحد مشتقات المرأة فيما يبدو، هما معًا اللغز

الكوني الأصعب الذي لا يكفيه ألف كتاب وكتاب، حتى ولو كان "كتاب المواصلات" الذي يمكن بالفعل أن تقرأه في المواصلات وتستكمل قراءته بنهم على سلالم البيت، لكنه حتمًا سيظل دائما في مكان بارز وحميمي جدًا في مكتبتك وكأنه يحمل شيء منك وأنت تحمل شيئًا منه.

الكتاب: كتاب المواصلات.
المؤلف: عمر طاهر.
الناشر: الكرمة 2018.

زاوية أخرى: عمر طاهر هو أحد أبرز الكتاب، الذي جلبوا جمهورًا جديدًا لقراءة الكتب في مصر بكل تأكيد، كتابه الأشهر كابتن مصر الصادر في 2007، هو الذي أدخل –برفقة رواية عمارة يعقوبيان لعلاء الأسواني– مصطلح الأكثر مبيعًا إلى قاموس المهتمين بالقراءة. لعمر العديد من الكتب التي تغرد في مساحة خاصة صعبة التصنيف، مثل "إذاعة الأغاني" و "صنايعية مصر"، ثم أنه شاعر في الأصل، كما أصدر أخيرًا رواية غير تقليدية بدورها بعنوان "يقدم مع الأرز الأبيض".

حصة الكوميكس

تشي.. السيرة المصورة المذهلة لـ «الجدع» الثوري

سيرة الثائر الأرجنتيني "الكوني" الأشهر تشي جيفار في قصة مصورة طويلة "كوميكس"، بترجمة "ذواقة الترجمات الممتعة المخضرم" الكاتب العربي الشهير "د.أحمد خالد توفيق"، ورسومات الفنان الأمريكي البارز "سبين رودريجرز"، الأمر يستحق القراءة باهتمام بكل تأكيد، فكيف كانت النتيجة؟

نحن بكل تأكيد أمام عمل استثنائي ممتع، ذلك أن "تشي جيفارا"– الصادرة في ترجمة عربية أولى عن دار الشروق في معرض القاهرة للكتاب في يوبيله الذهبي–، لا تتبع سيرة جيفارا بشكل تقليدي في السرد، وإنما تعمد إلى رواية جانبًا من نضال أيقونة الثورة في العالم، وقبسًا من حياته الشخصية التي لم تقل مغامرة وثورية، عبر رسومات متقنة تنبض بالحياة وسيناريو مشدود، يتابعه القارئ بشغف رغم أنه في الأغلب يعرف يقينًا أن كلما اقترب من الصفحات الأخيرة كلما باتت نهاية جيفارا وشيكة.

في العموم، يبدو أن هناك ولعًا من د.أحمد خالد توفيق بتشي جيفارا، إذ إن هذا هو العمل الثالث الذي يقترن فيه اسمه كاتبنا الكبير باسم "الثورجي" الأهم في القرن العشرين، فقد أصدر د.أحمد خالد توفيق، من قبل عامي 2008 و2009، روايتي "تشي" و "الحالم الأخير" في سلسلة فانتازيا، وتتبع فيهم روائيًا سيرة جيفارا، ثم أقبل على ترجمة السيرة المصورة لجيفارا عام 2010 أي في العام التالي مباشرة لصدور الجزء الثاني من الرواية التي كتبها عنه، وللمفارقة فإن كل ذلك جرى قبل عام واحد فقط من اندلاع ثورة يناير عام 2011، وكأنه– كعادته– كان يبشر بأمر ما قادم.

استغرق الأمر تسع سنوات كاملة لتصدر الرواية عن دار الشروق مؤخرًا، لكن الأكيد أن د. أحمد خالد توفيق، لم يكن فقط مولعًا بتشي جيفارا، وإنما أيضًا كان مواكبًا لحركة الأدب العالمية وبخاصة فيما يتعلق بـ «كوميكس الكبار»، إذ إن الطبعة الأولى من سيرة تشي جيفارا المصورة صدرت بالإنجليزية في بريطانيا وأمريكا عام 2008، أي أنه أنجز ترجمتها بعد عامين فقط من صدورها في بلدها الأم.

تضم الرواية المصورة أكثر من ستمائة كادر رسمها بإتقان مذهل الفنان "سبين رودريجز" الذي وصفه رسام كوميكس شهير آخر هو "جون ساكو" بأنه "واحد من أعظم فناني الكوميس على الإطلاق". وتتجلى براعة "رودريجز" في تلك الكادرات المتعلقة بالاشتباكات وحروب العصابات التي خاضها جيفارا في كوبا والكونغو وبوليفيا، أو خلال أزمة "خليج الخنازير" الشهيرة التي حاولت فيها الولايات المتحدة غزو كوبا وتغيير نظام كاسترو بالقوة عام 1961، لكن ذلك باء بالفشل.

يظهر في الأحداث المصورة الرئيس جمال عبد الناصر، خلال الزيارة الشهيرة التي قام بها جيفارا لمصر، وفي هذا الكادر الوحيد الذي جمعهما معًا، يظهر عبد الناصر ناصحًا بضرورة الاعتماد على الاتحاد السوفيتي للحصول على دعم؛ لمواجهة الحصار الأمريكي، ويظهر جيفارا مستمعاً باهتمام لنصائح الزعيم المصري، بل وسيطبق نصيحته هذه لاحقًا، وإن سيقول فيما بعد لأقرانه أنه "لا يجب على أي أمة أن تعتمد على أمة أخرى في سبيل حريتها"، كما سيقول للعالم كله ناصحًا ومبشرًا، "أعتقد أن الثورة يمكن خلقها في أي بلد على يد طليعة تتحلى بالإرادة".

لا تقدم "تشي" جيفارا باعتباره شخصية ملائكية لا تخطئ، بل أن الرواية المصورة المكتوبة بروح محبة واضحة لجيفارا وللماركسية والاشتراكية التي اعتنقها، أشارت بوضوح إلى مسئوليته عن الأزمة الاقتصادية التي ألمت بكوبا عام 1964، وأوضحت كما كان حالمًا حينما ذهب إلى أدغال

الكونغو متوقعًا انتصارًا للثورة في بلد غريب، ليكتشف هناك أن ذلك أمر صعب المنال، لكن ربما كان الحلم هو طابع الثوار بطبيعة الحال، ولا تعد هذه "نقيضة" يمكن الإشارة لها في مسيرة جيفارا.

الرواية أيضًا في جزئها الأول أشارت إلى رحلة جيفارا الشهيرة على متن دارجة بخارية برفقة صديقه حول العديد من دول أمريكا اللاتينية، وكيف أن هذه الرحلة التي أصدر عنها جيفارا كتابًا ملهمًا بعنوان "يوميات الدراجة البخارية"، جعلته صاحب أفق متسع لا يقف عند حدود وطنه، بل حولته تدريجيًا إلى "مواطن كوني" يشعر بآلام البشر مهما كانت بينهما المسافات، لكن الرواية تلمح أيضًا إلى أن جيفارا حينما كان في رحلته هذه كانت له آراء – بمقاييس عصرنا هذا– عنصرية، إذ عندما حل في كراكاس – عاصمة فنزويلا– رأى في الشوارع تعاملات الوافدين الأفارقة والبرتغاليين، فكتب يقول: "الأسود كسول حالم، يبدد راتبه الضئيل على الطيش والشراب، بينما الأوروبي اعتاد العمل والادخار وهذا يجعله يتقدم ويتفوق"، هل كان "نضج" جيفارا الذي جاء ممتزجًا بنضال حقيقي وحروب عصابات عنيفة، هو الذي جعله يشد الرحال إلى الكونغو مقاتلًا وساعيًا لأن ينتصر لأهل القارة أصحاب اللون الأسود على الديكتاتورية المدعومة من الرجال البيض الأوروبيين؟ هل كان نضجًا حقًا أم أنه شعور بالذنب أم الاثنين معًا؟

الأكيد أن الإنسان يتغير عبر امتداد حياته حتى لو كانت حياة تقليدية روتينية، فما بالنا بحياة صاخبة ثورية مجنونة مغامرة كتلك التي عاشها جيفارا؟

في الرواية، يقع جيفارا في حب ثلاث فتيات، الأولى هي "شيشينا" الارجنتية ابنة الأسرة الارستقراطية التي عرفها وهو يدرس الطب، لكن "شيشينا" ستعطي جيفارا أول صفعة قاسية في هذا العالم عندما تبتعد عنه مجبرة لأسباب طبقية، وفي سبيله لأن يتعافى من أزمته العاطفية العاصفة

تلك، يجد جيفارا نفسه مندفعًا وراء نصيحة صديقه "ألبرتو جراندو"، بأنه لا سبيل لشيء يمكن فعله الآن سوى أن يستقلا دراجة بخارية وينطلقا في صحاري أمريكا الجنوبية لاكتشاف العالم القريب منهم، وفي هذا مفارقة عجيبة، إذ إن هذه الرحلة هي التي شكلت وعي جيفارا الحقيقي، وكانت العنصر الأساسي المكون لشخصيته "الكونية" المتطلعة إلى تغيير العالم "بالقوة"، ورفع الظلم عن الضعفاء، أي أنه لولا أن هجرت "شيشينا" جيفارا، لربما لم تكن هناك أسطورة ثورية اسمها "تشي"، بالأساس، ولربما تعثرت الثورة الكوبية، ولربما تغير وجه العالم بآسره. قصة حب فاشلة إذا صنعت تاريخيًا مغايرًا.

لم يكن هذا هو دور المؤثر للمرأة في حياة جيفارا فحسب.

"هيلدا جاديا" البيروفية المناضلة ضد الديكتاتورية في بلادها، تعرفت إليه حينما كان يعمل طبيبًا في المكسيك، وتزوجا، وأنجبا ابنتهما "هيلداتا"، ثم كانت هي تبعًا لعلاقاتها مع القوى المقاومة للديكتاتورية في أمريكا اللاتينية، حلقة الوصل بين جيفارا وبين راؤل كاسترو، الذي كان "العامل المساعد" في تغيير تاريخ العالم، عندما عرَّف جيفارا إلى شقيقه فيدل كاسترو.

تغير عالم جيفارا تمامًا بمعرفته بكاسترو، أمسك السلاح لأول مرة، وانضم إلى صفوف المقاتلين الكوبيين ضد الديكتاتورية، ثم أصبح قائدًا عسكريًا، وفعل كل ذلك بدعم من هيلدا، التي كانت فيما يبدو متصالحة مع نفسها لدرجة أنها وافقت على طلاق متحضر من جيفارا، حتى يتزوج من رفيقته الثالثة "أليدا مارش" التي أحبها وسط أصوات الرصاص وأزيز الطائرات، والتي أنجب منها أربعة من الأبناء، ودعهم جميعًا متنكرًا في هيئة رجل أعمال في أكتوبر 1966، قبل أن يرحل إلى محطته الأخيرة– بوليفيا، وهناك انكشف أمره، بفعل الخيانة ربما، وبفعل الانهاك من طول القتال ربما، أو لتحالف قوى الديكتاتورية والولايات المتحدة من أجل

اصطياده، أو لكل ما سبق. وفي الثامن من أكتوبر عام 1967، سقط جريحًا ومصابًا بين يدي قوات الجيش البوليفي، وعندما دخل عليه رجلًا لتنفيذ حكم الإعدام بالرصاص واجهه جيفارا بشجاعة قائلًا :"أطلق الرصاص أيها الجبان، كل ما في الأمر أنك تقتل رجلًا".

هكذا تنقل رواية "تشي" قارئها إلى عالم سحري، تبدو فيه الثورة نشاطًا يوميًا، والحب فعلًا إجباريًا يفرض نفسه على القلوب وسط الرصاص المتطاير والصواريخ المتأهبة، عالم تختلط فيه المثالية مع التهور مع الأحلام الكبرى والانكسارات العظمى، عالم يليق جدًا ببطل صارت صورته أيقونة لكل فعل متمرد، لما لا وقد حارب وقاتل وناضل وأحب ومات وعمره تسعة وثلاثون عامًا فقط، وقد ظل يعاني منذ الصغر من نوبات الربو المنهكة، وظل يقاومها بلعب كرة القدم وحمل السلاح ومواجهة الشر وقلب يتسع لكل ضعفاء العالم، ليظفر بلقبه الاسطوري "تشي" وهي لفظة بالإسبانية تعني "الفتى" واختار د.أحمد خالد توفيق بفطنته وبراعته المعتادة أن يترجمها إلى لفظة "الجدع"، وكأن رسالته التي أراد نقلها عبر ترجمته لهذا العمل البديع، أنه قد يموت الجدع، لكن– أبدًا– سيرته لا تموت.

ظهور الصغير جِن.. أهوال ما قبل الجحيم

في حياة معظم الشعوب، تظهر عادة "محنة" كبرى، تغير من نمط الحياة إلى الأبد. يصبح العالم قبلها ليس هو ذاته بعدها قط، وفي الأغلب فإن هذه المحنة تتجلى في ذروة الحروب التي تخوضها هذه الأمم، ألمانيا مثلًا لا تزال حتى اليوم تعاني من محنة "النازية"، رغم كل محاولات التعافي والتسامح عن الماضي المرعب. اليابان بدورها لا يزال إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما وناجازاكي في 6 أغسطس 1945 بنهايات الحرب العالمية الثانية، يمثل ذروة محنة الإنسان الياباني المعاصر، والجحيم المستعر الذي لا يمكن أن يبرح ذاكرة هذا الشعب، رغم قدرتهم على العودة للحياة مجددًا، وترسيخ أنفسهم في دول العالم المتقدم مرة أخرى. دومًا هناك سؤالًا صعبًا عن الثمن الذي تم دفعه مقابل ذلك.

وإذا كانت نظرة الحفداء لـ «المحنة" التي لم يمروا بها، يمكن أن يكون فيها شيئًا من التدبر وقراءة العبر، فإن تعبير المعاصرين للمحنة، حتمًا يكون فيه شيئًا أصيلًا وحقيقيًا وموجعًا، ولعل هذا ما يظهر بقوة في الأعمال الأدبية التي تحاول أن تستحضر ما جرى من ويلات.

منذ انتشاره في منتصف السبعينيات، فإن فن "المانجا" الياباني– القصص المصورة بخطوط الأبيض والأسود والظلال فقط– باعتباره واحد من أكثر الفنون المقروءة هناك، وجد نفسه مطالبًا بأن يعبر عن محنة "القنبلة النووية"، ذلك أنها تقريبًا قضت على مجتمع ياباني، ومهدت الطريق لظهور يابان جديد، غير يابان الحرب العالمية الثانية بكل ما فيها من طموحات استعمارية وتعطش عجيب للحروب والدماء.

بدا إذن وكأن الشعب الياباني في محاولة التطهر عن الماضي المؤلم، والتسامي فوق آلام القنبلة الذرية وجحيمها، يميل للتعبير عن ذلك في واحد من أكثر فنونه شعبية وانتشارًا وتأثيرًا، وهو فن القصص المصورة "المانجا".

ظهرت رواية "جن الحافي" في منتصف السبعينيات، وكعادة القصص المصورة حينها، نشرت مسلسلة في مجلة أسبوعية يابانية متخصصة في فن المانجا، لكن تفرد الرواية المصورة وتميزها، وقوة بنائها الدرامي وخطوطها المرسومة، إضافة إلى انتقادها للواقع الياباني في زمن الحرب العالمية الثانية، وكيف كانت الديكتاتورية والطغيان سببًا رئيسيًا في جلب جحيم القنبلة الذرية للبلاد، صنع لسلسلة "جن الحافي" جماهيرية كبيرة تجاوزت حتى الحدود اليابانية، حتى إن السلسلة التي صدرت منها عشرة كتب مصورة متوسطة الحجم، بيع منها حتى اليوم عشرة ملايين نسخة، وترجمت لأكثر من عشرين لغة، وأخيرًا، وعبر خطوة جسورة لـ «مركز المحروسة للنشر" أصبحت اللغة العربية رقم 21 التي يمكن بها قراءة "جِن الحافي" مترجمة مباشرة عن اليابانية– بترجمة ممتعة للأستاذ الدكتور ماهر الشربيني– وهي خطوة كبيرة جدًا في نشر وتوسيع دائرة قراءة القصص المصورة الموجهة للكبار، وقد ظهرت ثلاثة أجزاء من "جن الحفي" دفعة واحدة على أن تصدر باقي أجزاء السلسلة العشرة لاحقًا.

يروى "ظهور الصغير جن" وهو الكتاب الأول في سلسلة "جن الحافي"–التي كتبها ورسمها ببراعة مذهلة الياباني ناكازوا كيجي الذي عايش تجربة القنبلة الذرية المروعة وفقد أسرته بالكامل فيها– قصة المجتمع الياباني في منتصف الأربعينيات، عبر تتبع حياة الطفل "جن" ذو الست سنوات ابن الأسرة اليابانية التقليدية العادية التي تعيش في هيروشيما، في ظل الحكم الإمبراطوري الياباني المولع بالديكتاتورية والحروب في آن واحد، وكيف سيؤدي ذلك لأن تدفع أسرة "جن" وكل الأسر اليابانية المسالمة العادية ثمن جنون الحكام، حينما تسقط القنبلة الذرية لتنسف

حياتهم حرفيًا.

تبدأ "ظهور الصغير جن"– الصادرة في ثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط– باستعراض لعالم الطفل جن وسط أسرته، حيث يخرج برفقة أخوته ووالده إلى حقلهم لزراعة القمح، وحيث يخبره والده بأهم درس سيتعلمه في الحياة "يجب أن تظل جذور براعم القمح مغروسة في الأرض بقوة من أجل تحمل قسوة برودة الصقيع والثلوج المتساقطة، ومن أجل ألا تطيح بها الرياح القوية ومن أجل أن تنمو إلى أعلى قوية ومستقيمة الشكل وتثمر ثمارًا جيدة". سيدرك جن لاحقًا أن هذا ليس درسًا في زراعة القمح فحسب، وإنما في بناء الإنسان خاصة حينما تتوالي عليه المحن والنكبات.

تستعرض الرواية المصورة ببراعة ودراما محكمة، تلك الأهوال التي عانى منها الإنسان الياباني قبل أن يستقبل الجحيم الأكبر المتجسد في القنبلة النووية، وكيف استحال المجتمع الياباني داخليًا إلى مجتمع متقاتل يأكل نفسه، حيث يصبح كل معارض للحرب "خائن للوطن"، ينبغي ليس فقط نبذه، وإنما الاعتداء عليه وحرمانه من كل حقوق الحياة إذا لزم الأمر.

يظهر "تاكاؤ" والد "جن" رافضًا للحرب بقوة، ورغم الجو البوليسي المرعب المعتمد على التخوين والوشاية حينها، فإنه يتحول تدريجيًا للمجاهرة بكراهيته ورفضه للحرب، مما يجعله هدفًا للهجوم من رئيس الحي الذي يجيش ضده المشاعر فيتهجم الناس عليه وعلى أبنائه ويصفونهم بأنه "أبناء الخائن"، لدرجة تدفع ابنه الأكبر"كوجي" للتطوع في القوات البحرية حتى ينزع صفة الخيانة عن أسرته، وهو ما يمثل صدمة وأزمة كبيرة للأب ويخبره ساخطًا بأن الذهاب إلى الحرب ليس هو العمل الشجاع، وأن الحفاظ على حياته وحياة الآخرين هم أشجع الأعمال. "كن جبانًا أو خائفًا المهم أن تظل حيًا"

الحرب في رأي "تاكاؤ" هي حرب صنعها رجال الأعمال اليابانيون؛

حتى يحصلوا على ثروات الدول المجاورة؛ بينما الشعب وحده الذي لا يجد قوت يومها حرفيًا هو الذي يدفع الثمن. ويتجلى ذلك في العديد من الملامح بالفعل، مثل حرمان الشعب من أكل "الأرز"– الوجبة الرئيسية هناك– حتى يتم توفيره للجنود على الجبهة، وتنازل المواطنين عن أواني الطبخ؛ حتى يصنعوا منها سفن ودبابات حربية، ونقل العديد من التلاميذ إلى مصانع الأسلحة ليعملوا فيها بدلًا من التعلم، وما بقي منهم في المدارس فإنه يتعلم عبارات مثل "جلالة الامبراطور هو إله اليابان، جميعكم أبناؤه.وإذا أمركم بشيء عليكم أن تطيعوه حتى لو ضحيتم بأرواحكم"

اللوحات المنتشرة في خلفيات الأحداث تكشف كيف كان المجتمع الياباني يعيش كابوسًا بالفعل حتى من قبل وقوع القنبلة، في الشارع نقرأ عبارات مثل "التبذير عدو"، "اقتلوا الامريكان الأنجاس" بل حتى لوحة إعلانية معلقة مثل "مانكنن دواء لجميع الأمراض"، تكشف كيف تحول المجتمع الياباني إلى مجتمع متدهور ومريض.

أشد مقاطع "جن الصغير" الكابوسية هي تلك التي يستعرض فيها المؤلف حالة التوحد الجنوني مع "الإمبراطور"، فمع هزائم اليابان المتوالية في منتصف 1945، صدرت التعليمات الإمبراطورية للشعب بتفضيل الموت عن الاستسلام، وهكذا كانت الأم اليابانية تحتضن بناتها وتلقي بنفسها وبهن جميعًا فوق الصخور لتتكسر عظامهن جميعًا بديلًا عن الاستسلام والوقوع في أسر الأمريكان. المرعب أن هذا كان يتم على وقائع أغنية تمجد ذلك "لو مت في البحر سوف تغرق/ جثتي في الماء ثم تطفو/ لو مت في الجبل/ سيغطي العشب جثتي الملقاة على الأرض/ ولكن إذا مت للإمبراطور/ لن أندم أبدًا".

وتتبع الرواية جانبًا إنسانيًا موجعًا لـ «الطيارين الانتحاريين"، حيث نرى أحدهم قبل قيامه بمهمته بأيام، وهو متوتر وعصبي وعلى شفا الجنون، يشرب الخمر بشراهة مودع، وينصح "كوجي" بالهروب من المعسكر، بل

يعرض عليه أن يقطع له ساقًا أو يدًا حتى يتم استبعاده من الالتحاق بالجيش، ناصحًا إياه "عش وكن حرًا وافعل ما لم نستطع أن نفعله نحن، تزوج الفتاة التي تحبها وكون أسرة واستمتع بالحياة، هكذا يجب أن تعيش".

كان القادة اليابانيون منزوعو الرحمة حينما ابتدعوا سلاح "الطيار الانتحاري"، إذ كانوا ينزعون من الطائرة التي ستقوم بالمهمة، المدفع الذي يمكن به للطيار أن يدافع عن نفسه، ويضعون وقودًا يكفي رحلة الوصول للهدف فقط وليس العودة، بل كانوا يضعون حول جسم الطيار نفسه حزامًا مليئًا بقنابل ناسفة.

وسط كل هذا الجحيم، كان "جِن" محتفظًا بمرحه الطفولي ومنطقه البريء، يحاول أن يتغلب على جوعه بأكل البطاطا، يقدم بعض ألعاب الحواة في الشارع لجلب المال لأمه وأبيه، يكتب برفقة شقيقته حرف "P" كبير أعلى منزلهم، بعدما أدركوا أن ذلك الحرف أشبه بشفرة يكتبها الأسرى الأمريكيون على أماكن سجنهم، حتى لا تقصفه الطائرات الأمريكية في غاراتها المستمرة على اليابان، لكن "جن" استيقظ ذات يوم على جحيم مستعر. لقد سقطت القنبلة الذرية على مدينته هيروشيما. نجا "جن" بأعجوبة حينما كان في مدرسته، وعاد مهرولًا إلى بيته، لجد أباه وشقيقته وشقيقه الأصغر محشورين أسفل أنقاض المنزل وتحاصرهم النيران، لم يجد من يساعده على إنقاذهم، وشاهد هو وأمه التي كانت حاملًا في أيامها الأخيرة، والده وأشقائه يموتون حرقًا أمام أعينهم، وفي نفس اللحظة وتحت وطأة الانفعالات العصبية التي مرت بها، هاجمت آلام الولادة أمه، ووجد "جن" نفسه مضطرًا لأن يجلب أدوات ولادة من البيوت المتحطمة، ويقوم هو بنفسه بتوليد أمه. جاءت طفلة جديدة إذًا من رحم الجحيم حرفيًا. وحينها أمسكت الأم بوليدتها ورفعتها لأعلى أمام عيون "جن" الملتاعة لتجعلها تشاهد الدمار والنار اللذين يأكلا بلادها صارخة فيها "عندما تكبرين لا تسمحي بحدوث ذلك مرة أخرى".

المشكلة أن صرخة والدة جن، لا تزال تدوي منذ هذا التاريخ الدموي، بينما الجحيم لا يزال مستعرًا في العالم من حولنا وكأنه لا ينتهي أبدًا.

الكتاب: ظهور الصغير جن.
المؤلف والرسام: ناكازوا كيجي.
الناشر: دار المحروسة 2018.

زاوية أخرى: قد يبدو غريبًا للبعض أن تكون هناك روايات كوميكس للكبار، لكن الثابت أنه في السنوات الأخيرة، هناك طفرة في هذه النوعية من الكتب، سواء المكتوبة "والمرسومة" مباشرة بالعربية، أو المترجمة، لهواة هذا الفن "التاسع" الفريد، يمكنهم أيضًا التهام عدة روايات كوميكس مذهلة للكبار، وهذه قائمة مختصرة، "عداء الطائرة الورقية" ترجمة د.أحمد خالد توفيق عن رواية الكاتب الباكستاني الشهير "خالد الحسيني"، "فردوس الزهراء" وهي رواية إيرانية مذهلة عن الواقع الاجتماعي والسياسي القاسي في طهران، وبالطبع هناك "مترو" أبرز وربما أول رواية كوميكس بالعربية من تأليف ورسم د. مجدي الشافعي.

حصة الخريف

ثمة اعتقاد سائد بأن قراءات الصيف والربيع تختلف عن قراءات الخريف والشتاء، ربما لأن الفصلين الآخرين يرتبطان عادة بالعام الدراسي أو الانتظام المستمر في العمل بعيدًا عن الإجازات الطويلة ومرح المصايف، ثم أنهما فصلين يميل فيهما كثيرون للبقاء في المنزل تدثرًا في البيت، ولعل كل هذه الأسباب أو بعضها، يشجع على قراءة نوعية كتب مختلفة، لا تتوقف عن حدود الأدب وما يشمله من شعر وأدب وروايات، وإنما يصبح أكثر ميلًا للانفتاح على قراءة كتب أخرى، في التاريخ والاقتصاد والعلوم والحياة الاجتماعية على سبيل المثال لا الحصر.

القائمة التالية تقدم لك خمسة كتب تصلح لأن تبدأ بها موسم القراءة "الخريفي– الشتوي"، هي في مجملها ممتعة وجذابة ولا تقل إثارة وتشويق عن الروايات والقصص، لكنها في ذات الوقت تتحدث عن مجالات وتفاصيل ربما من الصعب أن تقرأها في نوعيات أخرى من الكتب.

إليك قائمة الكتب "السبتمبرية"، وهي قائمة استرشادية بطبيعة الحال، لك أن تضيف أو تحذف منها، المهم أن تحافظ على فعل القراءة والاستمتاع بها.

***

1– القطة (التاريخ الطبيعي والثقافي)

كاثرين روجرز، 230 صفحة، دار كلمة

قد تكون ممن يعتنون بقطة في المنزل، أو تداعب أي منها إذا التقيتها عرضًا في الشارع، ربما تكون ممن يخافون منها وتقلق من "خربشتها"، في كل الأحوال فأنت في الأغلب لا تعرف دور القطط وعلاقتها بالإنسان وتأثيرها على حياته الدينية والاجتماعية والسياسية والأدبية، لدرجة أنه يستحق قراءة كتاب من مائتي وثلاثين صفحة.

ما الذي ستخرج به بعد قراءة هذا الكتاب؟

1– ستعرف أن أول من ساعد على ترويض القطط وتحويلها من كائن شرس وعضاض إلى كائن ممكن تربيته في البيت هم الفراعنة طبعًا، وأنه بعد العصر الفرعوني تدهور الحال بالقطط كثيرًا، حتى بدأ أثرياء فرنسا في تربيتها بالمنازل والقصور مجددًا في القرن السابع عشر، وتحول اقتناء القطط إلى طقس لا يمارسه سوى الأغنياء. من بعدها عاد عصر "الدلع" للقطط مرة أخرى ولم يتركونه قط من بعدها.

2– ستعرف أن كثيرًا من الكتاب والشعراء والفنانين أحبوا القطط جدا، لدرجة أن الكاتب الأمريكي مارك توين مثلًا كان رأيه أن القطط تتفوق أخلاقيًا على البشر، وأن هناك مقولة فرنسية شهيرة تقول بأنه كل كتاب القرن ال 19 الفرنسيين كان لديهم ولعًا بالقطط لدرجة أن الشاعر جواكيم دو بيله كتب في قطته قصيدة شعر من مائتي بيت! وسنعرف أيضًا أن احترام الشعوب للقطط تكون له– أحيانا– أسبابًا دينية، لدرجة أنه إلى يومنا هذا هناك أغنية يحفظها الأطفال في المدارس في تايلاند للقطة؛ لأنها هي التي

حمت كتب البوذية الموجودة في المعابد من أن تلتهمها الفئران.

3– ستعرف لماذا يتم وصف المرأة عادة بلفظ القطة وليس القط رغم أن القطط تضم أناثًا وذكورًا بطبيعة الحال، وهو أمر لا يقتصر على اللغة العربية فحسب، وإنما معظم لغات العالم، والسبب في ذلك أن القطط رغم أنها كائنات وديعة بالأساس إلا أنها متمردة ولديها دائمًا رغبة في التحدي، وعندما تنظر إلى عين الإنسان مباشرة فإنها تفعل ذلك بحيادية لا تكشف أي رد فعل متوقع. حسنا، ألا يذكرك ذلك بالحسناوات من النساء؟

***

2– شيكولاتة

سيمون ساتره: 180 صفحة، دار الشروق

وانت تلتهم قطعة من الشيكولاتة وتستمتع بمذاقها، ربما لا تدري أن وراء هذه القطعة قصة طويلة ومقعدة حتى تصلك من قلب مزارع الكاكاو في إفريقيا. ربما لا تدري أن وراء هذه القطعة حروب ومعارك وأن هناك من دفع حياته حرفيًا، ثمنًا لهذه القطعة السحري والممتعة. هذه ليست دعوة لعدم التهام الشيكولاتة بكل تأكيد، ولكن دعوة لمعرفة قصتها المثيرة.

هتستفيد إيه من قراءة الكتاب ده؟

ما الذي ستخرج به بعد قراءة هذا الكتاب؟

1– ستعرف أنك عندما تشتري قطعة شيكولاتة بجنيه واحد فإن ستة قروش فقط من هذا الجنيه هو ما يصل إلى الفلاح الإفريقي الطيب الذي يزرع الكاكاو في مزارع كوت ديفوار التي تنتج 40% من كل كاكاو العالم، في حين يذهب سبعون قرش من نفس الجنيه للمصنع والمحل الذي اشتريت منه الشيكولاتة.

2– ستعرف أن عالم زراعة وصناعة وتجارة الشيكولاتة مريب ومرعب، وأنه مثلًا هناك شكوك بأن أحد أشهر رجال الأعمال في بريطانيا، هو الذي يقف وراء استمرار الحروب الأهلية في كوت ديفوار، وأنه يدفع المال ويشتري السلاح للمتمردين؛ حتى يتحاربوا دائما، والسبب في ذلك أنه في إحدى السنوات اشترى 15% من محصول الكاكاو في كوت ديفوار، لكن العرض كان كبيرًا والطلب كان قليلًا، فكان الحل هو أن

تشتعل الحرب الأهلية من جديد، فيقل المعروض من الكاكاو في السوق العالمية، فيستطيع هو تصريف ما لديه من مخزون، وعندما نجحت الخطة، قرر تطبيقها مجددًا دون مراعاة للدم الذي يختلط بالشيكولاتة.

3– ستعرف السر الذي يقف وراء أن إعلانات الشيكولاتة أغلبها يتضمن ظهور أطفال لأن الأطفال يشترون 33% من منتجات الشيكولاتة في العالم، وينجحون بنسبة 71%في التأثير على آباهم من أجل شراء الشيكولاتة التي يحبونها.

***

3– عادات المصريين المحدّثين وتقاليدهم (مصر ما بين 1833– 1835)

إدوارد وليم لاين، مكتبة مدبولي590 صفحة

يكشف هذا الكتاب عن العديد من التفاصيل والعادات التي لا يزال المصريون يمارسونها حتى اليوم، كما يكشف عن بعض العادات الأخرى (وبعضها عجيب وبعضها الآخر متحضر) التي اندثرت بمرور الزمن. مؤلف الكتاب هو باحث إنجليزي جاء مصر وتعلم العربية وارتدى ملابس أهل البلد، ودخل بيوتهم ومساجدهم وكنائسهم وتجول في جميع أنحاء مصر تقريبا، فما الذي رأه قبل مائتي سنة؟

1– إن السيدات في الصعيد في هذا الوقت لم يكن يرتدين البرقع على الوجه مطلقًا، من يفعل ذلك كان سيدات القاهرة والدلتا فقط! بل أن البرقع بالأساس وتغطية الوجه كان منتشرًا بين سيدات الطبقة العليا في حين أن الطبقة الفقيرة نادرًا ما كانوا يرتدونه.

2– لم يكن مسموحًا لأحد أن يمشي في الشوارع ليلًا إلا إذا كان معاه "لمبه جاز" ويستثنى من ذلك "العميان". ولو حدث وأن ضابط الشرطة لمح أحدهم ليلًا، وشك فيه كان يستوقفه ويقوله "أشهد بالوحدانية" فلو قال "لا إله إلا الله" يكون مواطنًا شريفًا؛ لأنه كان هناك اعتقاد وقتها بأن الحرامي لا يستطيع النطق بالشهادة.

3– الزواج كان سهلًا وبسيطًا، ويقوم على أساس أن تقول السيدة لمن

تحب "زوجتك نفسي" ليتم الزواج دون الحاجة لشهود أو مأذون بطبيعة الحال، والاحتفال بالزواج كان نادرًا، وفي أغلب الأحيان تخرج العروس من بيت أبيها لتنقل إلى بيت العريس دون أي صخب أو زفة.

***

4– أوروبا.. تاريخ وجيز

لجون هيرست، وترجمة د.محمود محيي الدين، 186 صفحة، دار الشروق.

كثيرًا ما يقف الواحد يفكر عند أصل الأشياء، مثلًا: كيف أصبحت أوروبا أوروبا؟ ما الذي حدث لتصبح قارة متقدمة ومتحضرة وقائدة للعالم في أوقات كثيرة؟ كيف عبروا من مناطق السواد في "العصور الوسطى" لمناطق النور في "عصور النهضة"؟ كيف تجاوزوا سنوات الحروب والديكتاتورية والأمراض والفساد؟ هذا كتاب يحاول تقديم إجابات مختصرة على هذه الأسئلة ومن دون تقعر أو كلام غير مفهوم.

ما الذي ستخرج به بعد قراءة هذا الكتاب؟

1– ستعرف أن قيام ملك أو رئيس بتفقد "حرس الشرف" هو تقليد جذوره من أوروبا في العصور الوسطى، عندما كان الملك يعاين "حرفيًا" الجنود الذين أرسلهم له النبلاء حتى يحاربوا معه في المعارك، وأن الملك كان يفعل ذلك وهو يسأل نفسه سؤالًا مهمًا "ماذا أرسلوا لي هذه المرة من حثالة"؟

2– ستعرف أن بدايات عصر النهضة الحديثة في أوروبا بدأت في القرن التاسع عشر في فرنسا لما أصدر مجموعة من الباحثين أول موسوعة علمية حديثة، ولأول مرة تم ترتيب الموسوعة أبجديًا، وليس دينيًا، ولهذا جاء تعريف الرب والدين في منتصف الموسوعة وليس في أولها مثما كانت

الكنيسة تشترط حتى تسمح لأي موسوعة بالطباعة.

3– ستكتشف أن إعلان حقوق الإنسان الذي اقرته الثورة الفرنسية، وأول بند به هو–"يولد الناس أحرارًا ويظلون أحرارًا ومتساويين في الحقوق"، لم يكن سيخرج للنور إلا بعد ما تظاهر نواب البرلمان في "ملعب التنس" الخاص بالملك بعد ما رفض مقابلتهم، وأنهم لما قرروا التصويت على الإعلان كان الاقتراح الأول بأن من يصوت هو فقط من يملك شقة في فرنسا، قبل ما يكتشفوا أن هذا ضد معاني المساوة طبعًا.

4– ستعرف أن هناك حكمًا تعيش لأكثر من عشرين قرن، مثل تلك التي كتبها المؤرخ الروماني تاكيتوس في القرن الأول بعد الميلاد ويقول فيها "يحارب الزعماء من أجل النصر، ويحارب رفاقه من أجله".

***

5– القاهرة: جوامع وحكايات

لحمدي أبو جليل، 320 صفحة، الهيئة العامة للكتاب.

تعرف أنت طبعا عبارة "القاهرة بلد الألف مئذنة"، لكن هل تعرف الحكايات التي توجد وراء كل مسجد؟ هذا الكتاب رحلة تاريخية ومعمارية وروحانية ممتعة، تعرفك جزء من تاريخ الوطن بطريقة مختلفة، وتكش الدور الكبير الذي لعبته المساجد في صناعة جزء كبير من تاريخ مصر بشكل عام.

ما الذي ستخرج به بعد قراءة هذا الكتاب؟

1– قد تكون صليت ذات مرة في جامع ابن طولون، لكن هل تعرف أن مصمم المسجد "مهندس مسيحي" كان مسجونًا ثم أخرجه ابن طولون من السجن وقال له أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقي، وإن غرقت بقي".. وستعرف أيضًا أن ابن طولون رغم أنه عُرِف بالتقوى والصلاح (والدليل أهو.. بنى جامع) إلا إنه خلال حكمه لمصر قتل في سجونه 18 ألف بني آدم؟

2– لما تمشي في شارع المعز وتشاهد مسجد "ابن قلاوون" ستعرف أن إبن قلاون لما حكم مصر، فجأة استشعر أن الشعب يمكن أن ينقلب عليه في أي وقت، فأمر جنوده أن يقتلوا "أي حد معدي في الشارع"حرفيًا؛ حتى يخاف الشعب من طريقته في الحكم، استمر هذا المنهج لمدة ثلاث سنين، وقتل فيه عدد من المصريين لم يستطع أي من المؤرخين أن يحصيه، ثم استفاق ابن قلاوون فجأة واستشعر بجريمته؛ فقرر أن يستغفر ويبني

مسجد ومدرسة ومستشفى إلى جوار بعضهم، ودول بقى اسمهم مجموعة ابن قلاون.

3– ستتوقف عن وصف مسجد "السلطان حسن"، بالمسجد "اللي زاره أوباما" وستعرف أنه تقريبًا أعظم مسجد في العالم من الناحية المعمارية، وأنه بسبب فخامته المفرطة والإنفاق الزائد عليه، فكر السلطان حسن أن يتوقف بناؤه، ثم عاد وقال "لولا أن يقال أن ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما أنفقت عليه"، وستعرف أن المسجد أغلق أكثر من إحدى وثلاثين سنة بسبب الحروب بين المماليك؛ لأنه جرى استخدامه في المعارك من قبل باعتلاء مئذنته وضرب القلعة المجاورة، هذا يجعلك تتأكد من أن استخدام المساجد في المعارك السياسية وغيرها قديم وليس حديثًا.

الحصة الأخيرة

تعالوا نحرق الكتب!

كان القرن العشرين هو القرن الأكثر دمويًا في مسيرة الإنسان المعاصر فيما تنقله له سجلات الموتى والحرائق، لكن الأمر لم يكن يتعلق فحسب بعدد القتلى أو دوي القنابل وأصوات الغارات والجثث الملقاة في الطرقات.

الكتب أيضًا دفعت الثمن غاليًا في هذا القرن الدموي.

يسجل هذا الكتاب الموجع "إبادة الكتب" إصدار سلسلة عالم المعرفة الكويتية، من تأليف الباحثة الأمريكية "ربيكا نوث" وترجمة "عاطف سيد عثمان"، جانبًا من ذلك التاريخ المرعب المعاصر لنظرية "تقتلون شعب؟ إذن احرقوا الكتب". وهي نظرية سادت لسنوات طويلة في القرن الفائت، وربما تغيرت أساليبها بعض الشيء في القرن الحالي، وإن بقي غرضها قائمًا، خاصة في ظل وجود أنظمة استبدادية تتدعي أنها ترتدي ثوبًا ديمقراطية عصريًا.

قد يبدو للبعض أن استهداف المكتبات هو أثر جانبي للقتل الذي يطول الإنسان في ظل الحروب بين الدول أو الحروب التي تشنها بعض الأنظمة القمعية على شعوبها. القراءة الظاهرية السريعة للأمر تؤيد ذلك فعلًا، لكن الأمر ليس كذلك بالقطع.

تخدم المكتبات التاريخ الذي يدعو للتحليل والنقد. التاريخ الذي يملكه الجميع ولا يحوزه فرد بمفرده، ولهذا فإن استهداف المكتبات والكتب بحرقها، يتيح للسلطة أن تصبح هي وحدها فحسب صاحبة الرواية الواحدة والمطلقة للتاريخ. تروي التاريخ كما تحب أن ترويه، لا كما جرى.

تقول المؤلفة: "بإمكان نظام سياسي متطرف في بلد يتمتع بتطور ملحوظ في مكتباته أن يسيء استغلال المكتبات لترويج ذاكرة جمعية تخدم أغراضه، بينما أغلب المكتبات في الدول المتقدمة تؤدي دورًا بوصفها قوة مناوئة للراديكالية "هذا يعني أن المكتبات والكتب يجرى استخدامها في إعادة بناء التاريخ وتلفيق الأساطير، خاصة وأن لأسطورة التي تولدها الذاكرة الجمعية (ماذا لو كانت هذه الذاكرة الجمعية مشوهة أو موجهة وفقًا لدماغ السلطة؟) سمة عاطفية وسحرية.

في الأنظمة الثورية والقومية المتطرفة ينظر إلى المكتبات بوصفها مؤسسة تضفي شرعية على السلطة الحاكمة عن طريق غرس معتقدات وقيم "قومية" بشرط أن تخضع هذه المعلومات للسيطرة بغرض تشكيل مجتمع يمتثل لتصورات السلطة وقراراتها، هذا يوضح مثلًا لماذا تلزم وثيقة اتحاد المكتبات الأمريكي التي تحمل عنوان "إعلان المكتبة للحقوق" القيمين على المكتبات بتقديم صورة متوازنة وغير متحيزة للقضايا في مقتنيات الكتب التي بحوزونها في المكتبات وذلك من أجل تهيئة القارئ لاتخاذ قرار مستقل.

الكتب تحفظ التاريخ إذن، غابت الكتب فإن التاريخ يظل مشوهًا.

في ثمانينيات القرن العشرين أدرك الطالب الشاب أرون لانسكي أن أكوام النفايات وحاوياتها الكبيرة في شرق الولايات المتحدة كانت تلتهم آلاف الكتب المكتوبة باللغة "اليديشية" وهي لغة يهود أوروبا، التي كان يتحدث بها خلال الحرب العالمية الثانية ما يقرب من أحد عشر مليون شخص، لكنهم اندثروا للنصف تقريبًا، وهاجر معظمهم لأمريكا وتخلوا عن لغتهم، لكن لانسكي بدأ بجمع الكتب اليديشة من مراكز النفايات عبر دراجته الهوائية، وسرعان ما اكتسب زخمًا مكنة من قيادة شاحنة، وتأسيس مركز الكتاب الوطني اليديشي الذي يضم نحو مليون كتاب.

رواندا على سبيل المثال ولأن أغلب تاريخها شفهي وغير مسجل في كتب أو مجسد في مكتبات يمكن الرجوع لها، فإن حالة من التشكيك المتبادل بين الأطراف هناك لا تزال تسرى حول جذور العلاقة بين الهوتو والتوتسي في مرحلة ما قبل الاستعمار، لا يوجد تاريخ مشترك متفق عليه هناك؛ لأنه لا كتب توثق ذلك.

ليس هذا فحسب، بل أن الكتاب يذهب إلى حد اعتبار أن التفكك الدائم والانهيار المستمر لدولة مثل الصومال يرجع بالأساس إلى غياب قاعدة معرفية كتابية عن تاريخ الصومال وجغرافيته وقوانينه وثقافته الموروثة؛ لأن وجود "كتب" تسجل هذا التاريخ، سيكون حائط صد ومقاومة صلد ترفعه "الأمة الواحدة" في مواجهة "مجتمع القبائل المتناحرة". الأمر يمكن اختصاره في أي أن يشعب يتم التعرف إليه عبر "ثقافته المشتركة" بينما الصومال يتم تمييز أهله رجوعًا لـ «القبائل"

في ظل حرب الإبادة التي شنها الصرب على المسلمين في البوسنة منتصف التسعينيات من القرن الماضي، خرج مواطن بوسني مسلم ليقول "ليس السؤال من سينجو بل ضرورة أن ينجو أحدنا. لكي تقتل عبا يجب قتل ذاكرته، يجب تدمير كل شيء ينتمي لهذا الشعب".

ينقل الكتاب عن باتريشا كنيدي، الخبيرة في جهود أوكرانيا لإعادة المكتبات القومية بعد الاستقلال عن روسيا " لا يمكن الإجابة عن سؤال ما إذا كانت أي أمة لديها تاريخ أم لا، إجابة شافية من دون الرجوع إلى أرشيفها؛ لأن أرشيف الأمة هو السجل الملموس والصورة المجردة لتطور تاريخها"

فقد الألمان ما بين ثلث ونصف كتبهم من جراء القصف الذي شنه الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، ربما تبدو الأرقام هذه مرعبة، لكنها في نظر آخرين هي "قصاص عادل" لما فعله النازيون في كل الدول التي

احتلوها خلال الحرب العالمية الثانية.

ينسب الكتاب أول عملية لتدمير الكتب وحرقها في القرن العشرين لألمانيا. لا لم تكن نازية بعد. لقد حدث هذا في الحرب العالمية الأولى، حينها محى الألمان مكتبة الجامعة في لوفين ببلجيكا وقد كان عمرها قرونًا. الحقيقة أن الألمان دمروا المدينة بأكلمها خلال ستة أيام من الحرق والنهب والاعدامات وأخذ الرهائن، ثم أحرقوا المكتبة التاريخية التي كانت تضم مائتين وثلاثين ألف مجلدًا. كان حرق المكتبة استعراضًا دمويًا ورسالة تحذير قوية ألمانية مفادها أن السيطرة على المستقبل تعني حصار الحاضر وحرق الماضي.

عقب نهاية الحرب. أجبرت ألمانيا على دفع تعويضات، وإعادة بناء المكتبة. بعد هذا التاريخ بنحو عشرين سنة، اندلعت الحرب العالمية الثانية، وكرر الألمان الذين صاروا نازيين هذه المرة فعلتهم، أحرقوا المكتبة ذاتها مرة أخرى.

في ذروة الحرب ذاتها، وعقب قيام أهالي نابولي بقتل جندي ألمانيا. جاء رد النازي قاسيًا. تم سكب البنزين في أركان مكتبة الجمعية الملكية بنابولي، ثم جرى إحراقها أمام أهلها بدم بارد، دمر ما يقرب من مائتي ألف كتاب ومخطوط في هذه الواقعة، والرسالة كانت واضحة، الثقافة أولى بالحرق.

السؤال المهم هنا، كيف يمكن للشعوب أن تتوافق مع رغبات حكامها المجنونة في حرق المكتبات وتحويل التاريخ إلى رماد؟

يفسر الكتاب ذلك على أكثر من محور، بعضها يمكن استخدامه لتفسير الهجمات الشعبوية التي تظهر بين الحين والآخر للهجوم على "الصحافة" وما تمثله من رأس حربة لكتابة التاريخ الآني، في مجتمعات متعثرة سياسيًا

واجتماعيًا واقتصاديًا مثل العديد من الدول العربية، تقول المؤلفة: "عندما يرى الأفراد أن الأمن والرفاه، وتصورهم عن الذات ورؤيتهم للعالم بل الحياة نفسها موضع تهديد، تتدفق مشاعر الغضب والسخط واليأس، ويتحول الناس إلى رؤى بديلة مثل النزعة القومية أو الشيوعية، إذ تمثل هذه الرؤى تجسيدًا للوعود بشأن الهوية والأمل والتحكم في مجريات الأحداث" ليس هذا فحسب، تضيف المؤلفة "ثمة آثار نفسية مفيدة لتحديد عدو في أوقات الفوضى عندما لا يُرى بغاة واضحون" . العدو هنا يمكن أن يكون "قومية" أخرى، شعب آخر، أو فصائل بعينها داخل الشعب نفسه.

تبسيطًا، فإن ترسيخ شعور القلق والخوف على الحياة نفسها لدى الناس من قبل السلطة، يجعلهم أكثر ميلًا لتنفيذ رغبات هذه السلطات وتطلعاتها، حتى ولو كانت هذه التطلعات متطرفة أو شاذة، ووصلت إلى حد حرق كتب أو تصفية معارضين.

حرق الكتب إذن هو نفس الطريق الذي يؤدي إلى قتل الأشخاص، كلاهما يمكن أن يتم بدعم شعبي جارف، فيما يمكن وصفه بـ «إغواء الجماهير"

في الأنظمة المستبدة والمتطرفة تنظر السلطة إلى القراء والبحث باعتبارهما "نشاط سياسي"، ولهذا يجب أن يبقيا تحت السيطرة، حتى لا يجد المواطن نفسه مؤمنًا بأفكار خارج تلك التي تنتجها أو تراعها الدولة، أو في أسوأ الأحوال (بالنسبة للدول المستبدة بطبيعة الحال) مطلعًا على معلومات لم تمر على أجهزة الدولة.

هذا يفسر مثلًا تحول حرق الكتب في ألمانيا النازية إلى "طقس احتفالي"، إلى حد أن جوزيف جوبلز "وزير الدعاية النازية الشهير، خرج ليلقي كلمة احتفائية عقب قيام الشعب الألماني بحرق الكتب التي تؤرخ لألمانيا ما قبل هتلر، قائلًا: "لقد أبليتم "أيها الطلاب" بلاءً حسنًا في هذه

الليلة بإلقاء آثار الماضي في قلب النيران. هذا استعراض مفعم بالقوة وعظيم ورمزي. الماضي يرقد هنا في قلب النيران...".

عندما احتل الألمان بولندا، خلال الحرب العالمية الثانية، تم تفريغ كل المكتبات العامة البولندية من الكتب ونقلها إلى برلين، بما في ذلك مكتبة البرلمان البولندي، وأصدرت الحكومة الألمانية مرسومًا يقضي بأن يسلم كل مواطن بولندي الكتب التي تضمها مكتبته الخاصة، وتم استخدام هذه الكتب كمواد خام في مصانع الورق، أم كتب مكتبة كاليس العامة، فتم استخدامها لسد مجرى مياه الأمطار، وصار قانون ألا يتم السماح للأطفال البولنديين بالتعلم إلا لبضع سنوات فقط، بما يكفي لكتابة أسمائهم والعد إلى رقم خمسمائة، وتوقفت صناعة النشر تمامًا في بولندا، فلمن ستنشر الكتب إذا كان الشعب محرومًا من القراءة بالأساس؟ وإذا كان هذا هو حال العامة، فلك أن تتخيل ما طال الأساتذة والجامعيين من جحيم، خاصة وأن هتلر قالها صراحة: "لا يمكن لسيدين أن يقفا جنبًا إلى جنب، لهذا السبب يجب أن يقتل جميع أفراد طبقة المفكرين البولنديين". فقدت بولندا 40% من الأساتذة الجامعيين خلال الحرب، ويقدر مؤرخون بأن بولندا خسرت 90% من كتبها خلال سنوات الاحتلال النازي.

عقب الثورة البلشفية في روسيا عام 1917، وسيطرة الشيوعية على البلاد، اتجهت السلطة مباشرة إلى المكتبات لـ «تطهرها"، ومع انتصاف عام 1918 كادت تصبح أرفف المكتبات خاوية تقريبًا، إذ أرسلت الكتب إلى مصانع الورق أو إلى المخازن، وفي عام 1924 ظهرت قوائم الكتب التي يجب "محوها" وتضمنت كل الكتب في مجالات الفلسفة والدين والعلوم الاجتماعية وتاريخ الأدب والتاريخ والجغرافيا وحتى كتب الأطفال، وأزيلت أعمال كانط وأفلاطون وتولستوي ودوستويفسكي، ويمكن تلخيص ما جرى من مذبحة للمكتبات والكتب في هذه السنوات عبر ما قالته "كروبسكايا" زوجة الزعيم الروسي لينين، وقد كانت واحدة من الرقباء على المطبوعات،

قالت كروبسكايا، مدافعة عن منهجها: "لن يقرأ رجل من جماهير الشعب كانط، أما الكتب الأخرى فهي خبيثة ومهلكة؛ لأنها تتحدث عن الدين أو هراء أنظمة الحكم التقليدية أو موضوعات ولى زمنها"

لاحظ طريقة التعامل مع الكتب باعتبارها عدوًا صريحًا.

تطور الأمر ليصبح أكثر دموية في عهد ستالين، خليفة لينين.

يقول أحد المؤرخين عن هذه الحقبة السوداء: "كان النظام الستاليني يتخلص من الأشخاص، وكان يتعين إخفاء كل شيء يمت لهم بصلة بما في ذلك كل كلمة كتبوها كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم صارت كتب لم تسطر ومقالات لم تكتب وأحاديث لم يتفوه بها، مثلما صاروا هم أشخاصًا لم يولدوا"

عقب موت ستالين عام 1953، ظهرت في روسيا حملة أخرى تستهدف تصفية كل المكتبات من كل الكتب التي تمجد في تاريخ ستالين.

عندما اندلعت حرب البوسنة في عام 1992، بدا أن الصرب كانوا امتدادًا أكثر وحشية للنازية.

قام الصرب بمحاولة محو أي آثار أو أدلة التي تثبت وجود المسلمين والكروات الممتد عبر قرون في الأراضي المتنازع عليها وجاء ذلك عن طريق تدمير الكنائس والأديرة والمساجد والمدارس وأي مؤسسة تحوز توثيقًا مطبوعًا بما في ذلك سجلات المواليد ووثائق ملكية الأرض.

فاستهداف المساجد وقصفها وتسويتها بالأرض لم يكن رمزيًا بغرض كسر همة المسلمين، بل ربما كان غرضه الرئيسي هو انتزاع تاريخ المسلمين من هذه البقعة في شرق أوروبا، إذ إن المساجد وما كان يلحق بها من مؤسسات دينية وتاريخية كان تضم الوثائق والسجلات التي تثبت ترسخ

المسلمين هنا منذ خمسة قرون وأكثر. بحسب الكتاب فإن الصرب قد دمروا ما يقدر طوله بأربعمائة وواحد وثمانين ألف متر من سجلات المواليد والوفيات وعقود القران وعقود الملكية والأعمال التجارية وحياتهم الثقافية والدينية، ربما كان أكثر ما قيل دقة في هذا الأمر ما كتبه الصحفي البريطاني البارز روبرت فيسك "يستغرق الأمر بضع لحظات حتى يدرك المرء ماذا يعني هذا. إنهم يقتلون الموتى كما يقتلون الأحياء".

وقد كان الأمر يستدعي بالطبع قصف المكتبة الوطنية وحرقها في سراييفو، وقد كانت تضم 1.5 مليون مجلد و155 ألف كتاب ومخطوط نادر و600 ألف مطبوع مسلسل. استمرت النيران مشتعلة في المكتبة عقب قصفها لثلاثة أيام متصلة، ولم ينج منها سوى 10% من الكتب فحسب. رفض الصرب الاعتراف بأنهم قصفوا المكتبة عمدًا، بل أنهم قالوا بأن المسلمين هم من أحرقوها؛ لأن الطراز المعماري للمكتبة كان مسيحيًا.

بحلول عام 1938 تخلصت مكتبات ميونخ العامة من 76% من الكتب التي كانت بحوزتها عام 1934، ومقارنة بعام 1932 تراجع عدد زوار المكتبات العامة في ألمانيا عام 1938 من 100 ألف إلى 39 ألف فقط، أي أن المكتبات خسرت ثلثي زوارها. من هذا الذي بحاجة للقراء والمعرفة وهو يعيش تحت ظلال الفوهرر؟

جنون حرق الكتاب وحصار المفكرين أخذ أشكالًا عدة كما يرد في الكتاب. غزو العراق للكويت استهدف تصفية 43% من مكتبات المدارس للكويت، وتدمير البنية الثقافية المعلوماتية للبلد المحتل، الصين خلال فترة الحكم الشيوعي ما بين عامي 1950 و1956 صنفت الشعب إلى طبقتين أحدهم البروليتاريا والأخرى أعداء طبقيون، هذه الطبقة الأخيرة صنفت بدورها إلى تسع طبقات شريرة، كان أدناها "الكلاب الرأسماليين" ويتبعهم " المفكرون" وفي عام 1966 وفي ذروة سيطرة الثورة الثقافية لماو تسي، تم انتزاع أربعة ملايين كتاب من أرفف المكتبات الصينية؛ لأنها

تعتبر "عشب سام".

والآن وعقب سنوات بعيدة من دموية الثورة الثقافية التي يتراوح عدد قتلاها ما بين عشرة إلى عشرين مليون، لا تزال لسلطة في الصين ترفض "فتح جراح" هذه المرحلة، وتفرض تعتيمًا واضحًا على أي محاولات للبحث في هذا التاريخ الدموي، لكن العبر تقول بأنه لا تعتيم يدوم أبدًا.

لا يفرق كتاب "إبادة الكتب" كثيرًا بين الغزو الخارجي والاحتلال الوطني من قبل القادة، كلاهما يعتبر الكتاب عدوًا ينبغي التخلص منه، بل ربما يذهب الكتاب إلى اعتبار أن "السلطة المستبدة" هي الأكثر خطرًا؛ لأنها حينما تنتهي من التهام الكتب في بلدها، تلتفت في جوع إلى البلدان المجاورة بحثًا عن المزيد من الكتب لحرقها. تقول المؤلفة: "تنزع الأنظمة السياسية العنيفة إلى الاصطفاف خلف أيدولوجيا متطرفة تسوغ إبادة أي شيء يعترض سبيلها، وفي النهاية يفترس هذا النظام شعبه نفسه وثقافته، وشعوبًا أخرى وثقافتها، وهذه الوحشية لا تهدد الأفراد أو ثقافات بعينها وقعت ضحية لها، بل كل شعوب العالم في النهاية".

المسألة إذن تبدأ بترويض الوحش في الداخل، وهو أمر– بكل تأكيد– ليس هينًا على الإطلاق.

الكاتب

محمد هشام عُبيّه. صحفي وكاتب وسيناريست مصري من مواليد 1980. عمل سكرتيرًا للتحرير، ورئيسًا للديسك، ورئيسًا لقسم التحقيقات، ومساعدًا لرئيس تحرير، في صحف الدستور والتحرير (2005–2015)، ومحررًا للصفحة الثقافية بجريدة المقال (2017–2018)، ومديرًا للنشر بدار دلتا للنشر (2016–2017) كما أسس وترأس تحرير جريدة اليوم الجديد الأسبوعية (2014–2016). وعمل مراسلًا لجريدة السفير اللبنانية في القاهرة (2012–2013) . فاز بجائزة نقابة الصحفيين المصرية ثلاث مرات أعوام 2010 و2014 و2015. التحق ببرنامج القيادة الدولي (IVLP) الذي تنظمه الخارجية الأمريكية في 2013، وحصل خلاله على شهادة من كلية الصحافة بجامعة نورث كارولينا، وشهادة من برنامج "إدورد مورو" للصحافة بواشنطن.

أصدر عدة كتب، من بينها "بدون تأشيرة" (2017) عن رحلته الصحفية للضفة الغربية، و «الكتاب الأمريكاني" عن رحلته للولايات المتحدة (2016)، شارك في إعداد البرامج التليفزيونية ذات الطابع الوثائقي من بينها "زمن" لحسين فهمي، و «وصفوا لي الصبر" لعمر طاهر، كما أعد وكتب سيناريو الفيلم الوثائقي "صوت الشارع" عن "موسيقى المهرجانات" والذي عرض على قناة الغد 2019.

في عام 2016 اتجه لكتابة السيناريو بجانب عمله الصحفي، وشارك في كتابة مسلسلات "في كل أسبوع يوم جمعة"، و «شبر ميه"، و «زودياك"، و «زي الشمس"، و «رحيم" و "طلعت روحي"، و «سقوط حر".

للتواصل

mhebia@gmail.com

https://www.facebook.com/mohamed.h.obia

فهرس

أين يمكن قراءة هذا الكتاب؟ 5
حصة الروايات 7
الدائرة السوداء.. الحب في زمن "أمن الدولة" 9
يكفي أننا معًا.. لأن الحب المستحيل "ممكن" 13
حالات ريم.. تلك الأرواح التائهة 18
المختلط.. دراما الخواجات والجدعان على شـــــــط نيل المنصورة 23
الجدار.. الجميع يستمر في الحيـــاة حتى المذنبون، لكن ما ثمن ذلك؟ 27
موسم صيد الغزلان.. سطو غير مسلح على العقل 32
طُبع في بيروت.. كل شيء ليس كما يبدو في المرآة 37
العدد صفر.. قصة الجريدة التي تقتلك كل يوم 42
حصن التراب.. لكن الشتات في داخلنا يا صديقي 47
في غرفة العنكبوت.. العالم الخفي لـ«الحبايب" 52
ضارب الطبل.. دليلك إلى قهر الموت 56
(أهل الحي).. هلموا إلى مواجهة "بطش البرطوشي" 61
المقاعد الخلفية.. لحظات الحب "المموهة" 67
بنات حواء الثلاث.. المجد للمشوشين 72
بيانو فاطمة.. العزف على أوتار الروح 77
وكالة الموصلي في انتظار معجزة "أمطار صيفية" 82
حدث ذات صيف في القـــــاهرة.. عوالم ما بعد "الأحداث الكبرى" 86
حدث في برلين.. نازيون في القاهرة 91
أفراح المقبرة.. ذلك الرعب المصري الخالص 96

حصة الذكريات والعبر 101
أيامي مع كايروكي.. الموسيـــــقا التصويرية لجيل حاول تغيير العالم 103
هل تكون نادية مراد هي الفتاة الأخيرة حقًا؟ 111
"جابو" صحفيا.. دليل "ماركيز" لأجمل مهنة في العالم 118
لن أمنحكم كراهيتي.. الحياة بعد زلزال بقوة 9 ريختر 124
رسائل إلى فيرا.. لغز المرأة التي هزت عرش "نابكوف" 129
5 كتب لـ «مذكرات المشاهير" يجب أن تقرأها في الصيف 135
كتاب المواصلات.. شيء من روحك هنا 145
حصة الكوميكس 151
تشي.. السيرة المصورة المذهلة لـ «الجدع" الثوري 153
ظهور الصغير جِن.. أهوال ما قبل الجحيم 158
حصة الخريف 165
1– القطة (التاريخ الطبيعي والثقافي) 167
2– شيكولاتة 169
3– عادات المصريين المحدّثين وتقاليدهم (مصر ما بين 1833–1835) 171
4– أوروبا.. تاريخ وجيز 173
5– القاهرة: جوامع وحكايات 175
الحصة الأخيرة 177
تعالوا نحرق الكتب! 179
الكاتب 189
للتواصل 190